الرياد الآفاق

خمس رحلات إلى الجزائر

1904 - 1932

محمد الخضر حسين وآخرون

حررها وقدم لها: د. محمد صالح الجابري



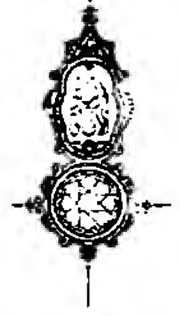
المؤسسة العربية للدراسات والنشر



دار السويدي للنشر والتوزيع

خمس رحلات إلى الجزائر

1932 - 1904



خمس رحلات إلى الجزائر / أدب رحلات
محمد الخضر حسين وآخرون / مؤلف ؛ [حرّرها وقدّم لها : د. محمّد صالح الجابري]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤
حقوق الطبع محفوظة



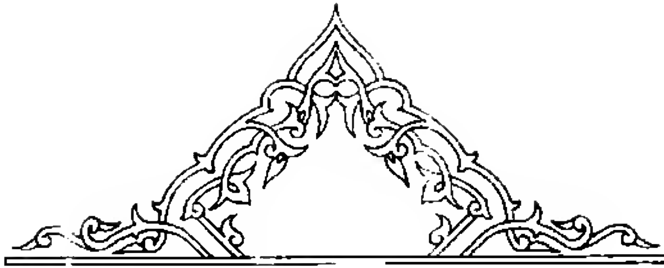
دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

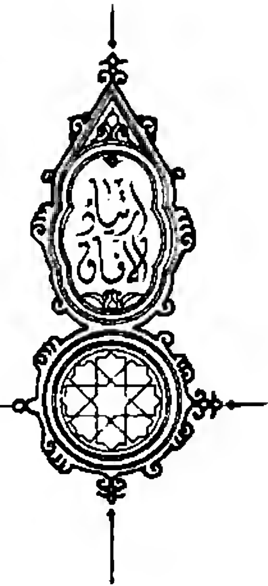
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
التنفيذ والإشراف الفنّي :
سيتي سيب ®
تصميم الغلاف : منير الشعراني / مصر
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-615-2



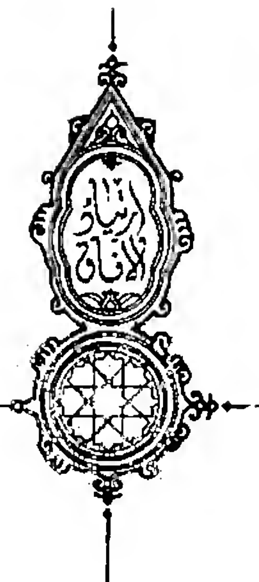
خمس رحلات إلى الجزائر

1904 - 1932



محمد الخضر حسين وآخرون

حررها وقدم لها: د. محمد صالح الجابري



يشرف على هذه السلسلة :

نوري الجراح

«أشرفنا على عاصمة الجزائر فتراءت لنا مصابيح أنوارها بمنظر أنيق وأشكال متناسقة ، وذلك لأن المدينة قائمة على أكمة مرتفعة ، يبتدئ العمران من أعلاها ثم يمتد متدلياً إلى شافة البحر ، فيبصر الداخل عند استقبال شوارعها المنورة ، وهي طبقات بعضها فوق بعض ، رونقاً مليحاً .» .

الرحلة الأولى ص 34

« . . .أما التجارة بـ«القصرين» فهي الآن في كساد كبير ، بسبب قلة الصابة والأمطار ، ويطلب سكان هذه الجهة من الحكومة بغاية الإلحاح أن تؤسس لهم جامعاً للصلوات ، و«مكتباً دولياً» لتعليم أبنائهم باللغتين العربية والفرنسية ، وهم محقون في هذين المطلبيْن المعقولين . .» .

الرحلة الثانية ص 48

« . . . يكاد الإنسان يحس بأن الكتابة والقراءة العربية قد أصبحتا مفقودتين ، ولقد يسهل على البعض من سكانها أن يعبر باللغة الفرنساوية عن مقصوده بصورة يستحيل عليه أداؤها باللغة العربية .» .

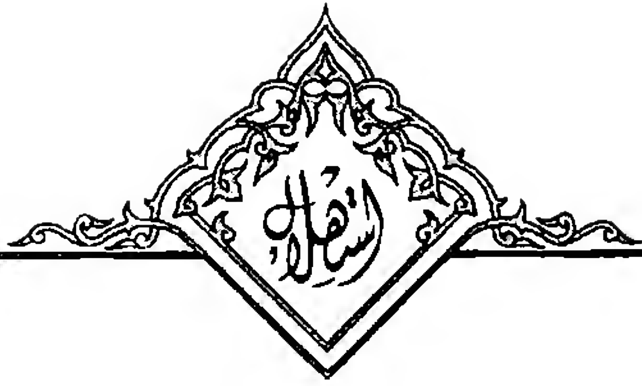
الرحلة الثالثة ص 84

«أما النساء الفرنساويات فهن كثيرات في كل أيام الأسبوع ويظهر عليهنّ الطيش في كل مكان .» .

الرحلة الرابعة ص 98

« . . .لكن العنصر الوطني أصبح يساوي ثلث السكان أو دون الثلث . وبالجزائر كما بوهران يكثر عدد الأجانب من الجالية الإسبانية كنموّ إخوانهم اللاتينيين الإيطاليين بالعاصمة التونسية .» .

الرحلة الخامسة ص 110



تَهْـدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحـدٍ من أعـرقِ ألوانِ الكتـابةِ في ثقـافـتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الإستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعة إلى السّحري والأيروسيّ والعجائبيّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشّلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها

من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة ، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوِّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلَّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همَّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدي



يتضمن هذا الكتاب خمس رحلات ، تصور لنا بعض مدن شرق وجنوب الجزائر في الثلث الأول من هذا القرن . قام بأربع رحلات منها أدباء وعلماء وصحفيون تونسيون معروفون . أما الرحلة الخامسة فقد كانت خلاصة انطباعات شاعر جزائري شهير عن بعض المدن الجزائرية الواقعة في نفس الرقعة الجغرافية .

ولعل السبب الذي حدا بي إلى أن أستعرض هذه الرحلة الأخيرة ، وقد كتبها جزائري عن وطنه الجزائر ضمن الرحلات التي كتبها تونسيون ، هو أن هذه الرحلة كتبت بطلب من جريدة «الوزير» ، وكانت موجهة أساساً للقارئ التونسي لإطلاعه على أوضاع هذه المدن ، وتعريفه ببعض جهات هذا البلد ، إضافة إلى أن ما ورد فيها من معلومات وملاحظات تتوافق في معظمها مع ما جاء في باقي الرحلات الأخرى .

إن الرابط بين هذه الرحلات الخمسة هو أن الدوافع التي حملت أصحابها على زيارة الجزائر تكاد تكون واحدة . كما أنها تغطي منطقة جغرافية واحدة هي المنطقة الواقعة شرق وجنوب الجزائر ، وفي القليل من الحالات تجاوز فيها أصحابها إلى وصف العاصمة . وهي رحلات يكمل بعضها البعض الآخر من حيث التغطية الزمنية ، إذ إنها أنجزت في فترات تاريخية متلاحقة .

ولذا فقد بدا الحديث عنها بصورة موحدة بمثابة ترتيب أجزاء الصورة الواحدة التي تبعثرت إلى أشلاء .

مصادر هذه الرحلات:

نشرت هذه الرحلات في المجلات والصحف التونسية الصادرة خلال الثلث الأول من هذا القرن الأول . فقد نشرت الرحلة الأولى في سنة 1904م بمجلة «السعادة العظمى»[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين[2] . وقد قام برحلته في أواخر سنة 1904م ، إلا أنه لم ينشرها إلا عندما أصدر العدد الأول من مجلته في بداية السنة الموالية .

ونشرت الرحلة الثانية بجريدة «العصر الجديد»[3] في سنة 1922م وقد قام بها صاحب الجريدة نفسه الشيخ أحمد حسين المهيري[4] ، كما نشرت الرحلة الثالثة بجريدة «لسان الشعب»[5] خلال السنوات 1927م ، 1928م ، 1929م . وقد قام بها الشاعر التونسي سعيد أبو بكر[6] في مرحلتين مختلفتين من سنتي 1927م و1928م .

---

(1) أول مجلة تصدر بتونس في شهر محرم 1322هـ ، الموافق لشهر أفريل 1904 .

(2) محمد الخضر حسين (1873 - 1958) ولد بنفطة إحدى قرى الجريد التونسي ، درس بالزيتونة ، وساهم في الحركة الوطنية ، ثم هاجر إلى المشرق العربي للإقامة بسوريا ومصر . وقد تولى مناصب علمية ، وشارك في إصدار عدد من المجلات الإسلامية .

(3) صدرت هذه الجريدة بمدينة صفاقس في سنة 1920 ، وكانت توزع على نطاق واسع بالجنوب الجزائري خاصة ، وقد أصبح الشيخ الطيب العقبي أحد مراسليها والشاعر محمد السعيد الزاهري من بعض كتابها .

(4) أحمد حسين المهيري ، من مواليد مدينة صفاقس عاصمة الجنوب التونسي ، درس بالزيتونة . وكانت له مواقف نضالية من المستعمر . أصدر جريدته المناضلة (العصر الجديد) سنة 1920 التي صادرتها الرقابة الاستعمارية في سنة 1924 ثم أعاد إصدارها سنة 1936 ، إيماناً منه بجدوى العمل الصحفي .

(5) صدرت هذه الجريدة في سنة 1920 .

(6) سعيد أبو بكر (1899 - 1948) من مواليد بلدة (المكنين) بالساحل التونسي زاول تعلمه بالقرية ، ثم اشتغل بمكتب أحد المحامين ، وكان مولعاً منذ الصغر بكتابة الشعر . أسهم في تحرير وإصدار عدد من الصحف والمجلات منها (العالم) سنة 1930 و(تونس المصورة) . له ديوانان بعنوان (السعيديات) و(الزهرات)

أما الرحلتان الرابعة والخامسة فقد نشرتا بجريدة «الوزير»[1] ، قام بالأولى منها الصحفي المعروف الطيب بن عيسى[2] صاحب الجريدة المذكورة في سنة 1927م وقام بالثانية الشاعر الجزائري حمزة بوكوشة[3] في سنة 1932م .

وباستثناء رحلة الشيخ محمد الخضر حسين التي تولى تحقيقها ونشرها كل من الأستاذ محمد مواعدة ، في كتابه «محمد الخضر حسين ، حياته وآثاره»[4] ، والسيد علي الرضا التونسي في كتاب له بعنوان «الرحلات»[5] الذي جمع فيه رحلات الشيخ الخضر فإن باقي الرحلات لم يقع نشرها ، ولم تقع الاستفادة منها في أي مصدر سابق . وقد عثرت عليها بمحض الصدفة أثناء تعقبي للصحافة التونسية .

على أنه لابد من الإشارة في هذا الصدد إلى مقالتين نشرت إحداهما بالصحف التونسية بعنوان «في القطر الجزائري الشقيق»[6] ، بمناسبة زيارة رئيس الحكومة الفرنسية أنذاك م . ديلادي وذلك ضمن وفد صحفي دعي لهذه المناسبة . وهي مقالة لا تتضمن إلا ملاحظات عابرة ترتبط بهذا الحدث ولا تتعداه .

أما المقالة الثانية فقد نشرت بمجلة «الأسبوع»[7] بعنوان «يومان في وادي سوف»

---

(1) صدرت في سنة 1920 .

(2) الطيب بن عيسى (1885 – 1966) من أصل جزائري ، ولد بتونس ، درس بالزيتونة وساهم منذ نشأته في تحرير وإصدار عدد من الصحف منذ مطلع القرن في كل من تونس والجزائر كما أنشأ في سنة 1911 جريدة (المشير) ، ثم جريدة الوزير في سنة 1920 . وقد كان من الرعيل الأول الذي ساهم في الحركة الوطنية .

(3)حمزة بوكوشة ، شاعر جزائري معروف ، كان له نشاط بارز في الصحافة التونسية في الثلاثينات .

(4) صدر عن الدار التونسية للنشر في سنة 1974، وقد نقلنا في الرحلة المدرجة معظم الهوامش والتعليقات التي بذل جهداً كبيراً في الاهتمام به الأستاذ مواعدة الذي بذل جهداً واضحاً في إعداد الرسالة .

(5) طبع بدمشق سنة 1976 .

(6) جريدة (الزمان) 26 جانفي 1939 .

(7) صدرت سنة 1946 وتوقفت سنة 1955 .

في سنة 1952[1] لصاحب المجلة نور الدين بن محمود[2] ، وهي كسابقتها لا تحتوي على أية معلومات مفيدة . ولهذا السبب لم أدخل هاتين المقالتين العابرتين ضمن ما اعتبرتُه رحلات لها غايات وأهداف مرسومة .

دوافع وأهداف هذه الرحلات:

يمكن القول بأن لهذه الرحلات هدفاً موحداً يتمثل في الاطلاع على أحوال الجزائريين ، وأوضاعهم الاجتماعية والسياسية والفكرية ، والاتصال بالعلماء والمثقفين ، وتبادل وجهات النظر معهم ، وتجديد الصلة بهم إلا أن دوافع الرحلة اختلفت من رحالة إلى آخر .

فالدافع الذي حدا بالشيخ محمد الخضر حسين للقيام بهذه الرحلة الثانية هو رغبته في زيارة مدينة الجزائر العاصمة بالذات ، والاطلاع على حالتها العلمية ، بعد أن كان قد زار قبل ذلك مدن شرق الجزائر دون أن يصل العاصمة . وهو يوجز غرضه من الزيارة في مقدمة رحلته إذ يقول : «كنت أسعفت في ما سلف من الزمان بإجراء سياحة في أطراف المملكة الجزائرية ، وبقيت النفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها ، لنكون على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية ، وجلية من أمر أخلاق أهلها الغالبة وعاداتها العامة ، فإن لسان العيان أفصح من لسان البيان .

وما برحت هذه الأمنية تتمثل في الخيال ، وتجول في العقل حتى مكنتنا الفرصة من توطيدها وإبرازها إلى حيز الوجود في شهر رمضان[3] من هذه السنة» .

وتبعاً لهذا الغرض فإننا نجد رحلة الخضر حسين تتركز أساساً على وصف لقاءاته تلك بالعلماء ، سواء منهم الذين صادفهم في المدن التي مر بها في طريقه كمدن

---

(1) أفريل ماي 1955 .

(2) من الصحفيين التونسيين الذي تميزوا بنشاط وافر في الأربعينات والخمسينات خاصة في المجال الإذاعي .

(3) رمضان سنة 1322هـ ./ نوفمبر - ديسمبر 1904 .

«سوق هراس» و«تبسة» و«العين البيضاء» و«قسنطينة» و«باتنة» ، أو الذين التقى بهم في الجزائر العاصمة في الدكاكين الثقافية ، والمساجد ، والدور الخاصة أمثال الشيخ محمد بوقندرة الشيخ الحنفي بالجزائر ، وعبد الحليم بن سماية ، ومحمد بو شنب ، وعبد القادر المجاوي وغيرهم .

وبذا ، فإن رحلته لم تتجاوز هذا الهدف الذي حدده لنفسه إلا لماماً كوصف بعض حلقات العلم والتدريس ، أو المناظر الطبيعية لمدينة الجزائر .

على أن الدافع لرحلة أحمد حسين المهيري اختلف عما قصده الخضر بن حسين من رحلته العلمية ؛ إذ كان غرض المهيري الاطلاع على الأحوال العامة للقطر الجزائري ، وتسجيل ملاحظات عن ذلك لقراء جريدته .

وقد حدد هذا الغرض في مقدمة رحلته بقوله : «منذ مدة ونحن في غاية التشوق إلى الاطلاع على أحوال القطر الجزائري المجاور لمملكتنا ، إذ نرى من العار عدم الاطلاع على أقرب الممالك الإسلامية إلينا ، فعزمنا بحول الله سبحانه وتعالى أن نجري رحلة استكشافية ، وننشر خلاصتها إلى قرائنا الكرام» .

ومع أن الهدف الذي حدده من الرحلة كان واضحاً فإن حسين المهيري لم يقتصر في رحلته على وصف أحوال القطر الجزائري فحسب ، وإنما كانت له اتصالات بعدد من العلماء والشعراء أمثال : أحمد بن عباس بن حمانة ، والشيخ محمود قشوط ، والأمين العمودي ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم في الرحلة .

كما إنه التقى في مدينة العين البيضاء بالأمير خالد الذي جاء إلى هذه المدينة : «لما خطب لابنه الأمير الهاشمي كريمة الفاضل السيد محمد الخرشي العدل بالمحكمة الشرعية بالمكان ، وعقد لابنته على ابن الوجيه محمد بن ساسي قاضي العين البيضاء» .

وقد وصف احب الرحلة الأمير خالد بأنه : «رجل شهم ذو همة سامية وأخلاق راقية ، طويل القامة ، كثيف اللحية ، كريم الطباع ، حسن الأخلاق ، متواضع ، ذو غيرة وطنية ، حر الضمير ، مخلص لوطنه» ، مما يدل على إعجابه بالأمير خالد وبخصاله الوطنية .

ويبدو من ثنايا الرحلة أن أحمد بن حسين المهيري قام بهذه الرحلة بعد الإعداد

لها . والاتصال المسبَق ببعض أصدقائه ومعارفه بالجزائر ، إذ نراه في بلدة «تبسة» يستقبل ويودع من طرف ثلة من أعيان البلدة ، وكذلك في باقي المدن التي زارها . من ذلك ذكره أنه لما وصل العين البيضاء على الساعة العاشرة والنصف صباحاً ، قابله : «أعيانها وتجارها وسراتها بغاية الفرح والسرور ، جزاهم الله أحسن الجزاء ، فاسترحنا قليلاً ، وإذ ذاك أقبل علينا بعض الأعيان والشبيبة الجزائرية ، فألفينا منهم اقتبالاً شيّقاً ، وهنّؤنا بسلامة القدوم» .

وبفضل هذا الإعداد المسبق لرحلته تمكن المهيري من الاطلاع على مختلف الأنشطة الثقافية والاجتماعية التي تقوم بها الجماعات المستنيرة في هذه المدن ، ولم تخل رحلته من إبداء الملاحظات التوجيهية والنقدية لهذه المشاريع والتعليق عليها ، وحثّ الجزائريين على مزيد العناية بأوضاعهم الاجتماعية .

أما رحلة سعيد أبي بكر إلى الجزائر ، وبالأحرى إلى «عمالة قسنطينة» فقد كان الدافع إليها ما بلغه من الناس في تونس من أن جميع مدن الجزائر آيلة إلى التفرنس ، باستثناء مدينة «قسنطينة» التي حافظت على شخصيتها العربية ، فحفزه هذا الحديث على شد الرحال للاطلاع على هذه المدينة التي صمدت في وجه الاستعمار ورفضت التفرنس .

وقد أشار إلى هذا الدافع في مقدمة رحلته بقوله : «طالما كنت أسمع الناس يتكلمون على بلدان الجزائر ، ويذكرون أنها آيلة إلى التفرنس لا محالة ، والبعض الآخر يخصص ويحتج ببقاء مدينة قسنطينة على حالها .

ولقد أصبحت منذ زمن بعيد أحمل بين جنبي قلباً يحب هذه المدينة التي حافظت على مدنيتها العربية ، وقاومت تيار التفرنس ، وصحت عزيمتي على الذهاب إلى قسنطينة قبل كل شيء» .

وإخلاصاً لهذا الهدف النبيل الذي دفع الشاعر أبا بكر لأن يقوم برحلته هذه ، غيرة منه على مصير العروبة في الجزائر فإننا نراه طوال الرحلة لا يكف عن توجيه نقده لظاهرة التفرنس أينما صادفها ، سواء في القطار عندما كان يسمع المسافرين يتحدثون باللغة الفرنسية ، أو في المدن التي لاحظ آثار التفرنس واضحة ومتفشية في أوساطها كمدينة «عنابة» ، إلا أن رحلته أظهرت ابتهاجه بما رأى عليه مدينة قسنطينة

من صمود وحفاظ على أصالتها العربية الإسلامية .

ورغم أن رحلته تمت بحكم الصدفة عندما كان في زيارة لقرية «غار دماو» التونسية المتاخمة للحدود الجزائرية ، ولم تكن نتيجة إعداد مسبق فإنه تمكن في هذه الرحلة من الاتصال بعدد من العلماء والأدباء في مختلف المدن التي زارها حيث نراه يلتقي خاصة بمدينة «بسكرة» بكل من : محمد الطيب العقبي ، والأمين العمودي ، ومحمد العيد الذين رحبوا بقدومه باعتباره من الصحفيين والشعراء التونسيين المعروفين لديهم .

كما يلتقي في هذه الرحلة بمدينة عنابة بالمناضل المعروف عبد الرحمان اليعلاوي الذي يذكر صاحب الرحلة أنه اشتهر لدى الجزائريين بعبد الرحمان التونسي ، نظرا إلى أنه أبعد من تونس إلى الجزائر في سنة 1924م .

وقد استغرقت المرحلة الأولى من رحلته «عشرين يوماً» حسبما عنون لذلك لرحلته في الجريدة التي نشرت بها في بادئ الأسر ، وشملت مدن وقرى : قسنطينة وبسكرة و«وادي الزناتي» و«قالمة» و«عنابة» و«سوق هراس» ، غير أن أبا بكر لم يلبث بعد برهة من رجوعه إلى تونس من هذه الرحلة الأولى أن عاود الكرة لزيارة الجزائر مرة أخرى ، وبالذات لزيارة الأماكن التي لم يتسن له زيارتها من «عمالة قسنطينة» . فامتدت رحلته الثانية من عشرين يوماً إلى شهرين . وبذلك غيَّر العنوان الذي كان عنون به لرحلته فأصبح «شهران في عمالة قسنطينة» . وذلك بداية من العدد 306 للجريدة الصادر بتاريخ 25 جويلية 1928م ، فزار في هذه المرحلة الثانية كلاً من مدن «تبسة» و«العين البيضاء» و«خنشلة» و«باتنة» و«سيدي عقبة» .

ونظراً لطول هذه الرحلة ، وصفة كاتبها الشاعر الصحفي ، فإننا نجدها ثرية زاخرة بالملاحظات والانطباعات الحية عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية ، والثقافية ، في مختلف هذه المدن التي زارها ، مع إظهار نقمة عارمة على الاستعمار لمصادرته الأراضي وتقديمها للمعمرين الفرنسيين بأبخس الأثمان ، وتفقير أبناء البلاد ، وانتهاجه أسلوب التفرقة ، وبث الخلافات والحزازات .

كما أنه وصف بدقة القبضة الحديدية للاستعمار ، وانتشار أعوانه من شرطة سرية في كل مكان ، الأمر الذي سبب له مضايقة شخصية من طرف هؤلاء الذين تعقبوه

وحاولوا استفزازه أثناء وجوده بإحدى المقاهي العامة بمدينة «تبسة» . وكذلك من خلال انتشار الثكنات العسكرية الكبيرة ، لاسيما في المدن المتاخمة للحدود التونسية الجزائرية مثل مدينة «تبسة» التي يصف الكاتب الثكنة العسكرية المحيطة بها بأن مساحتها تزيد عن «مساحة المدينة كلها بما يقرب من ثلاثة مرات» .

والحقيقة أن هذه الرحلة بالذات حققت غرضها المرسوم ، ومكنت كاتبها من الاطلاع عن كثب على حقيقة الأوضاع التي يعيشها الجزائري في ظل الاحتلال الاستعماري ، وقد يعود ذلك كما أسلفت إلى شخصية صاحب الرحلة ، وما يتحلى به من حس صحفي ودقة ملاحظة ، ومشاعر وطنية ، وصلات وطيدة ، وسمعة سبقته إلى تلك الربوع فجعلت المثقفين الجزائريين يحتفون به أينما حل ، وييسرون له سبل الاتصال .

فمن طريف ما يروي الكاتب في هذا الصدد أنه لما وصل مدينة «تبسة» في أول ليلة يعود فيها إلى الجزائر في رحلته الثانية ، بارح النزل الذي نزل به ليتسلى برؤية المدينة : و«دخلت أخيراً إلى قهوة إفرنجية أردت أن أرتاح فيها ، وتوجهت نحو رجلين يظهر أنهما من الأعيان كانا بصدد لعب النرد الذي ترتاح إليه نفسي» .

جلست حول طاولة بجوارهما وبقيت أنظر ولا أتكلم . وبعد خمس دقائق صفق أحدهما إلى الصانع . ولما سأله صاحبه ماذا يريد ، أجاب بقوله : « ليَأتِ بشيء إلى أحد شعراء تونس سعيد أبي بكر» . ولا تسألوا عن دهشتي عند سماع هذه الكلمات من رجل لا أعرفه ، وفي بلدة لا أعرف فيها أحداً ، ولكنني لم أتحير وشربت ، قهوة على حسابه .

ولما سألته بعد مدة كيف عرفني ، أجابني بأنه يملك ديوان «السعيديات»(1) وأنه يعرفن من صورتي التي في مقدمته ، وقد ظهر أنه السيد وهَّاب صالح أحد عدول المحكمة الشرعية بتبسة» .

ولا نستغرب بعدئذ أن يقع نشر هذه الرحلة طوال أكثر من سنة كاملة ، إذ شرعت الجريدة في نشر أولى حلقاتها في شهر ديسمبر 1927م ، ووالت ذلك بانتظام حتى

---

(1) طبع بتونس سنة 1927

شهر جانفي 1929م .

ولعل هذه الرحلة تلتقي في الكثير من أغراضها ودوافعها ، ومراميها مع رحلة صحفي تونسي آخر شهير ، هو الطيب بن عيسى القرواوي الذي كان من أكثر الصحفيين التونسيين إدماناً على الرحلة مشرقاً ومغرباً ، بغرض السياحة في الأقطار العربية والإسلامية ، وأيضاً للتعريف بجريدته «الوزير» ، والترويج لها .

وفي هذا النطاق فإننا نرى الطيب بن عيسى يشير في مقدمة جولته إلى المرات العديدة التي زار فيها الجزائر قبل الجولة التي لخص لنا فيها انطباعاته . وذلك بداية من أول زيارة قام بها إلى هذا القطر الشقيق في سنة 1920م ، ثم أعاد الزيارة إلى الجزائر العاصمة مرتين خلال سنة 1923م ، بينما قصر زيارته في سنة 1926م على «قسنطينة» بسبب مرض ألمَّ به في هذه الرحلة .

ويبدو أن الكاتب كان يتطلع إلى إجراء جولة مفيدة في رحلته الأخيرة إلى قسنطينة ينشر خلاصتها على قراء جريدته ، إلا أن تواضع ما حصل عليه من معلومات حمله على إلغاء التعرض إلى هذه الرحلة بتاتاً ، كما ذكر ذلك .

ومن ثم فقد ظلت رغبته متأججة إلى إجراء هذه الجولة ، ونقل آثارها إلى القراء التونسيين الذين كانوا يتشوقون إلى أخبار هذا القطر الشقيق ، وسنحت الفرصة في سنة 1927م للقيام بهذه الرحلة التي دامت عشرة أيام فقط ، تمكن الكاتب أثناءها من زيارة كل من : «قالمة» و«لاالجزائر» و«البليدة» و«قرواو» و«وهران» و«مستغانم» و«تجديت» و«سانت أوجين» و«الربية» ، إلا أنه لم ينقل لنا في رحلته هذه مشاهداته عن جميع هذه المدن التي أشار إليها ، بل اقتصر على ما شاهده في كل من قالمة و«الجزائر» و«البليدة» و«قرواو» مستعيضاً عن تفصيل المشاهدات بخلاصة مكثفة عن الأوضاع الاقتصادية ، والفكرية ، والحالة المتردية التي يحياها الجزائري في ظل الاحتلال .

لقد حدد الطيب بن عيسى غرضه من جولته في أنه كان يسعى إلى رصد أهم التغيرات التي طرأت على النهضة الأدبية والاقتصادية في الجزائر منذ زيارته الأولى إليها في سنة 1920م ، واستشفاف مستقبل الجزائريين ومآلهم في ضوء ما حققوا من تقدم وتطور قائلاً في هذا الصدد : «كان همنا الاستحصال على الإفادات الثانوية ،

وما يوجد من الفروق والمميزات بين زمانين ، غابراً وحاضراً ، من حيث الحركة الفكرية والنهضة القومية . وللمقارنة بين العصرين ، والموازنة بين الوقتين لزمنا أن نستند على الجزئيات لنبني عليها الكليات ، وجزئيات الجولة هي النقط الملفتة لأنظارنا من حيث التطور الجديد الذي أدخل على الأوساط فغيّر القديم من العادات ، أو لم يغيرها فأبقى القديم على قدمه .

هذا إذا أردنا البحث من الناحية الأدبية ، أما إذا تعرضنا للجهة المادية فنظرياتنا ستتجه نحو الناحية العمرانية ، وأين مركز الجزائر من التمدن ، أو إن تقدمت البلاد اقتصادياً بسبب ذلك ، فما هو القسط الذي ناب أبناء الجزائر الأصليين من الثروة العامة ، وإن وجدت فما نسبتها إلى النسبة التي انتفع بها سواهم؟ .

فإذن فبحثنا سيكون الصورة المبكرة لحالة الجزائر اليوم ، وموازنتها مع حالة الأمس» .

ووفقاً لهذه الخطة فقد رأينا جولة الطيب بن عيسى تنتهج أسلوب التحليل والمقارنة بين الفترات الزمنية التي زار فيها الجزائر لتبين مدى التطور والتغيير الذي طرأ على حياة الناس هناك . وذلك دون أن يغفل توجيه النقد اللاذع للاستعمار الذي استأثر بكل خيرات البلاد ووضعها في «أيدي الفرنسيين واليهود المتجنسين والغرباء من الأجنبيين . ونصيب المسلمين الجزائريين -ما عدا القليل منهم- من تلك الثروة الواسعة نصيب الأجير بالنسبة لمالك الأرض ومعمرها ومنتج خيراتها ، ومستثمر أرباح حاصلاتها ، أو قسط الشغال من نسبة مال صاحب المعمل العظيم» .

إن هذه الحالة المتردية هي التي حملت صاحب الجولة على توجيه نداء للشباب الحي الناهض في الجزائر كي يترسم السبل الكفيلة بخروجه من هذه الوضعية ، اعتماداً على ما يتحلى به الجزائري من خصال نبيلة وصفات حميدة مستمدة من : «رسوخ العقيدة ، والثقة في الله ، والمحافظة على التقاليد ، والعادات المقتبسة من المدنّية الأندلسية غالباً والتي تتفق تماماً مع الحضارة الإسلامية» .

وقد كان من ضمن برنامجه في هذه الرحلة أن زار قرية «قرواو» النائية بجهة «البليدة» التي ينتسب إليها جده الشيخ محمد بن عيسى : «وهذا السبب الذي دعاني لزيارتها -وما زيارتي لها بالأولى ، فقد زرتها في جويلية 1920م- وجدي هذا

من نسل ابن عيسى الدفين بجهة بسكرة والذي استوطن حفيده بقرواو ، ومات بها لنحو قرن» . ورغم خطة الكاتب وأسلوب رحلته فقد قدم لنا بعض المدن الجزائرية الهامة مثل «قالمة» و«الجزائر» و«البليدة» في لمحات قصيرة ، أشبه باللوحات التي يبدعها الفنانون الجوّالون الذين يكتفون برسم الملامح الأساسية لما يعترضهم ، تاركين للمشاهد فرصة تملّي أبعاد تلك السهولة النابضة .

أما الرحلة الخامسة التي نشرتها جريدة «الوزير» للشاعر حمزة بوكوشة فقد جاءت تلبية للدعوة التي وجهتها الجريدة للشاعر بأن يكتب لها مشاهداته عن المدن الجزائرية ، فاستجاب لهذه الدعوة بأن سجل للقراء التونسيين ملاحظاته ومشاهداته أثناء عودته من بلدة «دلس» الواقعة شمال الجزائر حيث يعمل مدرساً في إحدى المدارس إلى «وادي سوف» مسقط رأسه ؛ فوصف في هذه الرحلة المدن التي اعترضت طريقه وهي : «دلس» و«الجزائر» و«بوسعادة» و«بسكرة» و«القمار» و«الوادي» مستعرضاً من خلال ذلك ملامح هذه المدن ، وما شاهد فيها من نشاط فكري وعلمي ، ونهضة إصلاحية ومقاومة للانحراف والطرقية .

وهكذا فإن هذه الرحلات تلتقي حول هدف واحد ، هو الاطلاع على أحوال القطر الجزائري الشقيق ، وتحسس المشاكل التي يعانيها مواطنوه ، والتنديد بالمستعمر ، ونقل صورة عن ذلك الواقع إلى القارئ التونسي الذي كان شديد التلهف لمعرفة ظروف إخوانه وأشقائه .

ونتيجة لما اقتنع به هؤلاء الرحالون إثر مشاهداتهم أوضاع الجزائريين وأحوالهم النفسية ، وملامسة العمل الجاد الذي كانوا يقومون به لإصلاح أوضاعهم الداخلية ، فقد جاءت هذه الرحلات مفعمة بالتفاؤل بمستقبل هذا الشعب ، مشيدة بوعي الجزائريين وهمم العالية ، واستماتتهم في الحفاظ على شخصيتهم القومية التي لم ينل منها المستعمر .

وإن أهم الملاحظات التي يمكن أن تستخلص من هذه الرحلات تتمثل فيما يلي :

1- تنديد أصحاب هذه الرحلات بالاستعمار وأعوانه من الأجانب ، وعملائه من الجزائريين ، والتركيز على ما يعاني الجزائري من اضطهاد وتمييز وتفقير وانتزاع لأرضه وإهدار لحقوقه ، باستثناء رحلة الشيخ الخضر حسين التي لم تتناول هذا

الجانب ، لأن رحلته كانت أساساً من أجل الالتقاء بالعلماء ومحاورتهم حول المسائل الدينية . وقد اختار لها شهر رمضان من سنة 1932هـ لهذا الغرض .

2- نقمة أصحاب الرحلات على الطرقية والزوايا ، ونعت أصحابها بالسذج والمحتالين ، والتنويه بالمصلحين الجزائريين الذين كانوا يقومون بدور بارز في مقاومة الطرقية والانحرافات الدينية ، وذلك أيضاً باستثناء الشيخ الخضر حسين التي لا يرد فيها شيء من ذلك بسبب أن تيار الطرقية لم يكن في مطلع القرن يشكل الخطر الذي أصبح يشكله بداية من العشرينيات .

3- عناية هذه الرحلات بوصف الحياة العامة في الجزائر من أسواق يومية وأسبوعية ، وذكر لأسعار المواد الأساسية كالزيت واللحم وغيرهما ، واختلاف تداول العملات ونوعيتها من ولاية إلى أخرى ، واكتظاظ المقاهي بالعاطلين الذين لا يجدون لهم سلواناً إلا لعب «الدّاما» و«الورق» و«النردشير» وغير ذلك .

كما اعتنت كذلك بوصف حياة المرأة الجزائرية في هذه الحقبة ، عندما كانت تتصنع الحجاب في المدن حفاظاً على شخصيتها ، واعتزازاً بتقاليدها بينما نراها في الريف والقرى تناضل إلى جانب زوجها ، وأحياناً بمفردها لانتزاع قوتها اليومي .

وقد شاهد الرحالة التونسيون نماذج من النساء الجزائريات ، ووصفوهن وصفاً يفي بحقهن ، وينوه بكفاحهن وصلابتهن وحفاظهن على تقاليدهن وأصالتهن العربية الإسلامية .

4- تجمع هذه الرحلات على إبراز عناية الجزائريين بالمساجد ، بما يليق بهذه المعالم من مكانة دينية وعلمية . وقد وصفها بعضهم بدقة وتفصيل ، وأشاد بما يتحلى به الجزائري من توقير للإمام والقاضي وحارس المسجد .

وأطنب جلهم في التنويه بالمكانة العلمية للقائمين بإلقاء الدروس التعليمية والوعظية والدينية بهذه المساجد . وقد حضر معظمهم حلقات علمية ، وخاصة الشيخ الخضر حسين الذي كان حرصه منصبّاً على حضور الدروس التي تلقى بهذه المساجد ، ومساجلة أصحابها في المسائل الفقهية العويصة . وقد أثنى ثناء عظيماً على علماء الجزائر ، وأبدى إعجابه بطرق طرحهم للمسائل الاجتهادية

وتمكنهم من الموضوعات الدينية .

5- تبرز هذه الرحلات تمازج الشعبين التونسي والجزائري ، وعمق التبادل العلمي والتجاري بينهما . فقد ورد في هذه الرحلات ذكر للعديد من أسماء التجار التونسيين الذين كانوا يتعاطون التجارة في مختلف المدن التي زاروها ، وذكر للعلماء الذين كانوا يقيمون بهذه المدن لنشر التعليم ، وقد أسس بعضهم مدارس من حرّ ماله لهذا الغرض ، كما تبرز الرحلات العلاقة الوطيدة ، والمشاعر العميقة التي ظل يكنها خريجو الزيتونة لدور تونس ودور جامعة الزيتونة في النهضة الإصلاحية بالجزائر ، وفي إثراء الحياة العلمية والثقافية .

6- تتفق جميع هذه الرحلات على الإشادة بخصال الجزائريين ، وما يتحلون به من أخلاق فاضلة ، وشيم عالية ، وكرم وفادة ، وبذل سخي في سبيل نهضة وطنهم ، وتفاؤل بمستقبل بلادهم ، وإصرار على النضال ضد المستعمر وأعوانه .

7- ونظراً إلى أن هذه الرحلات كانت موجهة إلى القارئ العادي ، فقد غلب عليها الأسلوب الصحفي المبسط الذي لم يخل أحياناً من استعمال لعامية ، والدخيل من اللغات الأجنبية خاصة اللغة الفرنسية ، وذلك إمعاناً في التوضيح ، والاقتراب من نفوس الناس ، والالتزام بالواقع المحض ، ونقله نقلاً مباشراً دونما تدخل أو افتعال .

ولم تشذ عن هذا الأسلوب غير رحلة الشيخ الخضر حسين التي كتبت بأسلوب العلماء . وكانت مرصعة بالشواهد من القرآن ، والحديث النبوي والمسائل الفقهية ، مفصحة عن أسلوب صاحبها وشخصيته كعالم ديني .

وختاماً فإن هذه الرحلات تقدم لنا صورة عامة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية التي كانت تسود شرق وجنوب الجزائر في الثلث الأول من هذا القرن . وتتجاوز هذا النطاق الجغرافي في بعض الأحيان لتصف لنا الجزائر العاصمة ومعالمها وأوساطها العلمية والثقافية . وقد كان غرض أصحابها الاطلاع على أحوال أشقائهم في هذا القطر المجاور ، وخاصة في المدن المتاخمة للحدود التونسية الجزائرية ، والتي تمتد عبرها أواصر القرابات والمصاهرات ، والوشائج القبلية والدموية وغيرها بين المقيمين على طرفي الحدود . وذلك قصد طمأنة التونسيين على مصير وأحوال

أشقائهم في الجزائر ، والرفع من معنويات الشعبين الشقيقين اللذين كانا يرزحان تحت نفس الاستعمار ، ويتطلعان إلى توحيد صفوفهما لخوض غمار الكفاح الموحد في سبيل تحقيق الغايات النبيلة في التحرر وبناء المصير المشترك .

د . محمد صالح الجابري

(الرحلة الأولى)

الرحلة الجزائرية

1904

محمد الخضر بن حسين

كنت أسعفت فيما سلف من الزمان بإجراء سياحة في أطراف «المملكة الجزائرية» ، وبقيت النفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها ، لنكون على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية وجليّة من أمر أخلاق أهلها الغالبة ، وعاداتها العامة ، فإن لسان العيان أفصح من لسان البيان . وما برحت هذه الأمنية تتمثل في الخيال وتجول في العقل حتى مكّنتْنا الفرصة من توطيدها وإبرازها إلى حيز الوجود في شهر رمضان المعظّم من هذه السنة .

ولما استقّر بنا النوى من حيث ابتدا ، وصقل الإياب مرآة الصدور بما مسها به البعاد من المدَا ، قبضت قبضةً من آثار سفرنا هذا ، ونبذتها[1] في صحائف هاته «المجلة»[2] عسى أن يعتبرها مطالعوها الكرام بمثابة فصل انُتزعت شذوره من مجلد ضخم في أنباء الأمة الجزائرية من جهة معارفها وأخلاقها .

سوق أهراس:

عقدت العزيمة على الظعن في الساعة الثامنة صباحاً من اليوم الخامس من الشهر المذكور «شهر رمضان» سنة 1322هـ[3] ، واتخذت سبيلي في البرّ لأنه أجمل منظراً وأقلّ خطراً ، فانسحب بنا القطار وهو يطوي البيد طياً ، ويجوب من المفاوز الفسيحة مكاناً قصياً إلى أن نفخ نفخة الغيور الكريم ، ثم سار سيراً رويداً واستوى على محطته الواقعة على جناح من بلد «سق أهراس»[4] في الساعة الرابعة مساء .

فهبطت متدلياً إلى المنزل الذي أُعدّ لنا ، وبعد أن نفثت نَقْع[5] ما علق بنا من النصب ، تطوفنا في أغلب مناهجها المتسعة ، وفسحنا الخاطر في بناءاتها المتناسقة ،

(1) بمعنى نشرتها .

(2) هي (مجلة السعادة العظمى) ، وقد صدرت بتونس في أفريل 1904 .

(3) يوم السبت الموافق ليوم 12 نوفمبر سنة 1904 .

(4) مدينة من مدن الشرق الجزائري .

(5) غبار .

ولعدم كبر مساحتها يمكن الإحاطة بها في مدة وجيزة . وعند مغيب الشفق توجهت إلى مسجد لاغتنام فضيلة الجماعة ، وبعد أن قضيت الصلاة وتأهبنا للانصراف قام من الجماعة رجل تلوح على وجهه سمة أهل العلم ، ودنا مني وسلّم عليّ سلام ذي معرفة ، ثم مسك بيدي وتقدم بي إلى محراب المسجد وأومأ إليّ بالجلوس ، ثم استدارتْ الجماعة على هيئة درس ، ورأيت في يد أحدهم سفراً فالتفت إلى ذلك الفاضل وقلت له : «هل لكم درس في هاته الساعة» فقال :

«نعم ، درس في التوحيد ، ولكن نريد أن نعوضه بمسامرة علمية معكم» .

فجرتْ على بساط المسامرة مسائلُ بعضها في العبادات ، وبعضها في غير ذلك ، منها قول بعض المسترشدين : «هل كان النبي ﷺ يحْلق رأسه أمْ لا ، وما حكْم عدم الحلق؟» ، فكان الجواب أنَّ الآثار الصحيحة تدل على أنه ؟ لم يحلق لغير نسك ، فيحتمل أن يكون ترك الحلق من باب ترك الأخذ بالعُرف ، والجري على ما هو العادة عند قومه ، وعلى هذا فمن جرى عرف قومه بالحلق كان الأوْلَى في حقه العملُ على مقتضاه ، ويحتمل أن يكون على وجه التشريع فيكون سُنّةً وهو ما فهمه أبو الوليد الطرطوشي[1] وابن العربي[2] ، وصرّحاً بأنَّ حلقَ الرأس لغير نُسك بدعة ، والذي يقوى في النظر أنَّ تركَ الحلق هو من باب العادة فلا يُعد الحالق مبتدعاً .

وقد يقال لا تثريب على من ترك حلق رأسه بقصد التأسي بالنبي ﷺ فإن الصحابة والسلفَ الصالحَ كانوا يحافظون على الأسوة به في العادات ، كما يحافظون عليها في السنن فيعارض بأن الشارع قد أمر بموافقة ما جرى به العرب في غير ما شرعه .

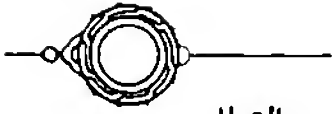
وبعد أن ختمت الُمسامرةُ وانفضّت الجماعة ، تجاذبنا مع ذلك المدرس محادثةً خاصة ، فاستجلينا من خلالها أنه الشيخ «محمد الصالح بن الشايب» العدل بالمحكمة القضائية . ومما جرى في خاتمة المجلس لفظُ «منطاد» فقلنا هو الآلة التي تطير

---

(1) أبو الوليد الطرطوشي (1059 – 1126م) فقيه : من مؤلفاته : ((سراج الملوك)) ، و((الحوادث والبدع)) .

(2) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي متوفى (546هـ/1151م) محدث أندلسي وقاضي قضاة اشبيلية من أشهر كتبه : ((المسالك في موطأ مالك)) .

في الهواء المسمّاة بالبالون ، وهو لفظ عربي ، في القاموس[1] الانطياد : الارتفاع في الهواء صُعُداً ، والمنطاد : البناء المرتفع . ويوجد في هذا البلد مدرس آخر ، وهو الشيخ «عبد المجيد» . كنت في السنة الفائتة أتيتُ المسجد الذي يدرّ فيه المختصر الخليلي[2] وقد سبقت لنا معرفتُه بالحاضرة فرحب بنا وأحسن لقاءنا ، ثم سعى بنا إلى محلّ الدرس ، فجلس عن يسارنا وشرع في تقريره بطريقة مقتصَدة خالية من التطويل ، بعيدةً عن الاختصار . وبإثر انقضائه عقدنا معهم مسامرة اشتمل غالبها على تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَةً﴾ . . الآية[3] . وعلقنا عليها ما حضرنا في فضل التعليم والتعلم .



تبسة:

وفي الساعة الخامسة صباحاً[4] سافرت إلى «تبسة» فوصلناها بعد مسير القطار نحو خمس ساعات ، وبعد أن أزحنا بالاستراحة ما سامنا من عناء السفر خرجنا نتدرج بأنحاء البلاد إلى أن استقصينا غالب مناهجها جولانا . وألفيناها منفوضة الجراب من آثار التعليم سوى أن بعض المتخرجين بالجامع الأعظم[5] من أهالي الجريد[6] يجاور بها نحو خمسة أشهر في السنة يلقي فيها دروساً من الكتب الابتدائية .

وبعد صلاة التراويح ، زارنا جماعة من أعيان تجارها لهم عناية أكيدة بالمسائل التي

---

(1) القاموس : هو القاموس المحيط للفيروز أبادي .

(2) كتاب مشهور في الفقه المالكي ألف الشيخ خليل بن إسحاق المتوفى سنة 1374م .

(3) الآية 122، سورة التوبة .

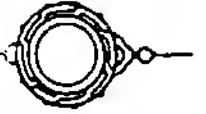
(4) يوم الأحد 6 رمضان سنة 1322هـ/13 نوفمبر سنة 1904 .

(5) المقصود هو جامع الزيتونة .

(6) الجريد : منطقة توجد بالجنوب الغربي من الجمهورية التونسية وعلى الحدود الجزائرية اشتهرت بواحات نخيلها وبأهميتها التاريخية ،لها كثير من العلماء والأدباء . كما أن أهلها كثير والزيارة للبلاد الجزائرية .

تعرض لهم في أمور التجارة . وهو من أعظم الأدلة على متانة الديانة والترقي من الشبهات . منها قول بعضهم : «ما تقولون في رجل اقترض مالاً من عند آخر واشترى به أشياء تجب فيها الزكاة فيما اشتراه بمال القرض إن مر عليه الحول أو لا تجب لأنه مدين» .

فكان الجواب : «إن المدين الذي لا تجب عليه الزكاة هو الذي ليس له من الملك ما يسد به خلة ما عليه من الدين ، أما إذا كان مالكاً لما يجعله في مقابلة ذلك الدين فلا يعد الدين مسقطاً للزكاة كما في الموطأ[1] .»



عين البيضاء:

ومن الغد[2] قصدت عين البيضاء في الساعة السادسة مساء ، فركبت عربة يجرها أربعة جياد لعدم ارتباط البلدتين بسكة حديد ، فوصلنا في الساعة الخامسة صباحاً[3] . وبعد أن أخذنا سنة من النوم أفاضت علينا من الاستراحة شيئاً يسيراً ، وفد علينا بعض أهل العلم مثل الشيخ «محمد العربي بن قشوط» والشيخ «المسعود بن علي» و الشيخ «أحمد بن ناجي» فاستنارت صدورنا تأنساً بمحاورتهم العلمية في سائر ذلك اليوم . ومنَ المسائل التي طرحت بيننا مسألة الفرق بين الكل والكلية ، فقررنا أن قوله «كل ذلك لم يكن» لما قال له «ذو اليدين» : «أقصّرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت؟» هو من باب الكلية لا من باب الكل كما يقول بعض المصنفين بدليل قول «ذي اليدين» : «قد كان بعض ذلك يا رسول الله» ، وقوله في الرواية الأخرى : «ما قصرت الصلاة وما نسيت» . وان المعنى كل ذلك لم يكن في ظني فيكون مطابقاً للواقع والاعتقاد ، ولا داعي إلى تأويل الحديث بتوجيه النفي إلى المجموع ، بل لا يصح تخريجه على ذلك .

وبعد صلاة التراويح دعانا الشيخ «أحمد بنا ناجي» إلى المسجد الذي يدرس فيه المختصر الخليلي ، فلما وافينا المسجد وجدناه غاصاً بتلامذة ذلك المدرس وغيرهم ففسحوا لنا مقعداً في المحراب ، ثم قام رجل منهم ووزع أجزاء نسخة قرآن على

(1) الموطأ : كتاب في الفقه ألفه مالك بن أنس المتوفى سنة 179هـ – 795م .

(2) يوم الاثنين 7 رمضان الموافق ليوم 14 نوفمبر 1904 .

(3) يوم الثلاثاء 8 رمضان الموافق ليوم 15 نوفمبر .

الحاضرين ، وهذه عادتهم في كل ليلة جمعة .

وبعد ختامها انتدب منا ذلك الشيخ أن نذاكرهم بتقرير بعض الأحاديث فوقع اختيارنا على حديث «سبعة يظلّهم الله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل . . . الخ» الحديث ، فأمينا بعض ما نعهده في شرحه ، وأسبغنا المقال في شأن التوادد والتعاون عند قوله : «ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه» . وشاهدنا من الحاضرين رغبة مفرطة وإقبالاً زائداً على تلقي التعاليم الدينية .

قسنطينة:

بارحت عين البيضاء في الساعة السادسة صباحاً[1] ، فوصلنا قسنطينة بعد مسير الرتل ست ساعات تقريباً ، وأعدنا الاستطلاع على بعض معالمها الدينية وآثارها القديمة والحديثة . بهذه المدينة مدرسة إسلامية معدة لتخريج القضاة والعدول . وثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة : الجامع الكبير ، والجامع الأخضر ، والآخر يسمى بجامع سيدي الكتاني . وفي هذا الجامع منبر من الرخام مرقوم فيه بيت من الشعر يتضمن اسم مؤسسه وتاريخ تأسيسه وهو :

بنى منبراً بالعز ، والنصر صالح
له سبل الخيرات ، تاريخه رشد[2]

وأسس الجامع الأخضر سنة 1256هـ . وبه مكتبة عمومية تحتوي على عدد من الكتب المطبوعة امتداولة . والتقينا بأشهر علمائها الشيخ «حمدان بن الونيسي»[3] الذي كان زار الحاضرة منذ عهد قريب ، والعالم «أحمد بن الحبيبات» ، وهو رجل عليه سمة أهل الخير والصلاح . ولما حان وقت الصلاة رأيت جماعة مستديرة في

---

(1) يوم الأربعاء 9 رمضان الموافق ليوم 16 نوفمبر .

(2) البحر الطويل ، كلمة رشد مجموع حروفها بحساب الجمل عند المغاربة يساوي : ر200 + ش1000 + د4 = 1204 .

(3) حمدان الونيسي (1856 - 1920) عرف بالصلاح والتقوى ، تولى تدريس عدد من علماء الجزائر ، ثم هاجر للإقامة بالحجاز .

جانب من الجامع والناس يستبقون نحوها زُمراً ، فأخبرني بعض من معي بأن للشيخ درساً في التفسير فدنوت منه وأصغيت إليه فإذا هو يقرئ في قوله تعالى : ﴿مَا نَنسَخ مِن آيَةٍ﴾ [1] ، الآية بتفسير الخازن[2] .

وبعد أن تم الدرس تقدم إلينا بعض الطلبة الذين سبقت لهم بنا معرفة مسترشداً عن مسائل منها : كيف يجمع بين قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾؟[3] وقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [4] ، فكان الجواب أن الله لا يؤاخذ أحداً بزلة أحد ، وإنما يستحق العقوبة صاحب الذنب إلا أن الله فرض على كل مسلم رأى منكراً أن يغيره ، فإذا لم يفعل ما استطاع من تغييره وسكت كان عاصياً فينخرط مع صاحب الذنب في العقوبة ، أحدهما بفعله والآخر برضاه ، قال تعالى : ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [5] . فالفتنة في الواقع لا تصيب إلا صاحب الذنب كما قال عمر رضي الله عنه : «إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عملوا المنكر جهاراً استحقوا العقوبة» .

واجتمعنا بأحد الثقاة من بلد «المسيلة» ، فحكى لنا أن بعض الطلبة في تلك الجهة يعمل في صيامه بقواعد الحساب تارة ، وتارة يؤم الناس في صلاة العيد وهو صائم ، فقلنا ورد قوله ﷺ : «فإذا غم عليكم فأقدروا له» .

فذهب «مطرف بن عبدالله» أحد التابعين إلى أن معنى اقدروا له بحساب المنجمين ، واستدل بقوله تعالى : ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [6] فأكملوا العدد الثلاثين .

ثم إن الشرع مبني على ما تعلمه الجماهير ، وأمر الحساب لا يعرفه إلا القليل من

---

(1) الآية 106، سورة البقرة .

(2) هو علاء الدين الصوفي البغدادي (1269 – 1340م) له كتاب (ألباب التأويل في معاني التنزيل) الذي يعرف بتفسير الخازن .

(3) الآية 25 سورة الأنفال .

(4) وردت هذه الآية في آيات : 164 سورة الأنعام ، و15 الإسراء ، و18 فاطر ، و7 الزمر ، و38 النجم .

(5) الآية 79 سورة المائدة .

(6) الآية 79 سورة المائدة .

الناس ، ولو كان الحساب طريقاً يعتد به في ثبوت الشهر لعلّمه النبي ﷺ للصحابة . كما كانوا يعملون أوقات الصلوات ، ويرد استدلال مطرف بأن المراد من الآية الاهتداء في طريق البر والبحر .

يبلغ عدد سكان هذه المدينة نحو 55 ألف نسمة ، نصفهم من المسلمين ، وأربعة آلاف من اليهود ، والباقي من الإفرنج .

باتنة:

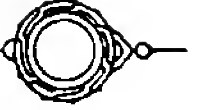
ثم التقيت بابن عمنا «الشيخ الحسن» ، فربطنا النية على المرافقة في السفر ، فتوجهنا إلى «باتنة» ، فوصلنا في الساعة الثامنة مساء[1] . وبعد أن وضعنا أوزار التعب تجولنا في غالب شوارعها فإذا هي فسيحة العرض متناسقة البناء منورة بالكهربائي .

وفي أثناء المطاف قال لي رفيقنا المذكور ، إني أعرف هنا رجلاً من أهل العلم والأدب ، فقلت تلك الضالة التي ننشدها مثل هاته الليلة ، اسع بنا إلى أن نروح الخواطر بأسماره . فمضينا حتى انتهينا إلى محل معد للتجارة ، فوجدنا جماعة جالسين على شكل نصف دائرة ، فلما رأونا انتفضوا قائمين وعلى وجوههم نظرة البشر والابتهاج ، وعلى تحيتهم طلاوة الأدب واللطافة ، فكان ذلك براعة استهلال لما ينبغي ملاحظته في ذلك المنتدى .

واتفق أن كان من زمرة هؤلاء الفضلاء الشيخ «أحمد البوعوني» المشار إليه ، والشيخ «إبراهيم بن السلمي» . ولكل منهما فصاحة منطق وسجية نزاعة للأدب ، ولأولهما شعر جيد ، فقضينا في السمر مقدار ثلاث ساعات كانت لتلك الليلة نطاقاً جميلاً . ولما أزمعنا الانصراف ، ووقفنا موقف الوداع ، تكدرت خواطرهم لانصداع إيوان تلك المؤانسة وتقطع أسبابها ، فألقوا على مسامعنا عبارات يتمشى التحسر والتأسف في مناكبها ، فقلنا لهم العوْدُ أحمد أنشدنا لهم :

(1) يوم الخميس 10 رمضان الموافق 17 نوفمبر .

لا تَــأسَ يــا قــلــبُ مــن وداع
فــإن قلب الوداع عـــادا[1]



عاصمة الجزائر:

وفي الساعة الخامسة صباحاً[2] تحرك بنا القطار من باتنة ، ولم يزل يخبُّ ويضع ويحمل ويضع حتى ضرب سواد الليل أطنابه ، وفي الساعة الثامنة أشرفنا على عاصمة الجزائر فتراءت لنا مصابيح أنوارها بمنظر أنيق وأشكال متناسقة ، وذلك لأن المدينة قائمة على أكمة مرتفعة ، يبتدئ العمران من أعلاها ثم يمتد متدلياً إلى شافة البحر ، فيبصر الداخل عند استقبال شوارعها المنورة ، وهي طبقات بعضها فوق بعض ، رونقاً مليحاً .

وبعد أن اصطفينا محلاً لمقامنا ووضع متاعنا ، وتناولنا من الراحة جزءاً يسيراً ، تكفأنا نجول في بعض النواحي ، فالتقينا بالسيد «علي بن الحداد» أحد أعيان تجارها الأفاضل ، فبسط علينا من الحفاوة والترحاب رداءاً ضافياً . ولهذا الفاضل محل تجاري يتسامر فيه جماعة من أعيان العلماء والفضلاء ، تعارفنا مع بعضهم في تلك الليلة .
ومن الغد[3] تشرفنا بزيارة الولي الصالح الشيخ سيدي «عبد الرحامن الثعالبي»[4] ، وزرنا بإزائه المدرسة الثعالبية التي تم بناؤها في هذه السنة ، وافتتحت باحتفال رسمي يوم الاثنين 17 أكتوبر ، وأسست هذه المدرسة لتعليم الوطنيين العلوم العقلية والنقلية ، ومنها يتخرج القضاة والعدول .

ثم بعد الزوال بساعة ذهبنا إلى الجامع الجديد ، ويقال له الجامع الصغير ، فوجدت العالم الفاضل الشيخ بوقندوزة المفتي الحنفي جالساً في زاوية منه ، وحوله جماعة من

---

(1) البحر : مخلع بسيط .

(2) يوم الجمعة 11 رمضان الموافق لـ 19 نوفمبر .

(3) يوم السبت 12 رمضان الموافق لـ 19 نوفمبر .

(4) عبد الرحمان الثعالبي (1386م - 1468م) ولد بالجزائر وتوفي بها من علماء التفسير له كتاب ((الجواهر الحسان في تفسير القرآن)) .

الطلبة على شكل دائرة يتناوبون سرد صحيح الإمام البخاري واحداً بعد واحد ، والشيخ مصغ إليهم . فإذا ناب أحدهم خطأ استرده إلى ما هو الصواب . وهذه عادتهم في سائر أيام رمضان .

وبعد صلاة الظهر تنقلنا إلى الجامع الكبير ، فالتقينا بالشيخ عبد الحليم بن سماية[1] ، فغمرنا بنفحات خلقه الناضر ، واختلب ألبابنا بفصاحة لسانه الساحر ، ولم نلبث معه عند هذه الملاقاة إلا مدة قصيرة لأمر عارض حال بيننا وبين استطالة الجلسة .

وبعد ذلك أخذ في تقرير مبحث صفة الكلام من كتاب الصغرى للشيخ السنوسي[2] بصوت جهوري ، فوضح معناها ثم أقام عليها الدليل ثانياً ، وتعرض في أثناء ذلك إلى مسائل لها علاقة بالمبحث كتنبيه ، على أن الحدوث الذي وصف به القرآن في بعض الآيات كقوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [3] هو عائد إلى الألفاظ التي نتلوها لا إلى المعنى الذي هو قائم بالذات العليّة .

ومما يدل على صلاح حال هذا الرجل ، وصفاء سريرته ، أنه ما جرى ذكر النبي ﷺ على لسانه إلا ارتعد صوتُه وفاضت دموعهُ . ثم أقيمت صلاة العشاء فتقدم ذلك الشيخ وصلى بالجماعة إماماً ، وقرأ في الركعة الأولى بسورة القارعة ، فلما بلغ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَه﴾ [4] أخذته عَبرة شديدة ، وسمعته يجهر بالتأمين بعد الفاتحة في اصلاة ، فعجبت من مخالفته للرواية المشهورة ، وهي عدم تأمين الإمام في الجهر ، وبلغني أنه خوطب في ذلك فأجاب بأنه يختار رواية المدنيين لترجحها بالحديث الصحيح ، يريد بذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إذا أمن الإمام فأمنوا» وهو ظاهر في تأمين الإمام في الصلاة الجهرية .

---

(1) عبد الحليم بن سماية : من أفاضل علماء الجزائر كان مدرساً بالمدرسة الثعالبية توفي سنة 1351هـ .

(2) هو أب عبدالله محمد السنوسي المتوفى سنة 1490 ، عاش في تلمسان ونبغ في العلوم الإسلامية من مؤلفاته ((أم البراهين في العقائد)) أو ((السنوسية الصغرى)) وهو مختصر لعقائد التوحيد .

(3) الآية 2 ، سورة الأنبياء .

(4) الآية 10 ، سورة القارعة .

والمتمسكون برواية المصريين المشهورة يؤولون «أمّن» على من بلغ موضع التأمين كأنجد إذا بلغ نجدا بدليل حديث : «إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين» . ولعل الشيخ ممن يستبعد ذلك التأويل ، ولا يرى الحديث الأخير ظاهر الدلالة على عدم تأمين الإمام .

وعرجنا في إيابنا على محل السيد أحمد بن مراد المعد لبيع الكتب ، فالتقينا بالشيخ محمد بن شنب ، أحد المدرسين بالمدرسة الثعالبية فأخذنا معه أطراف محاورة أطلعتنا على ما له من النباهة التامة ، والتفقه في الأمور الحديثة زيادة عما له من التفنن . ثم انصرفنا وصحبنا أحد الفضلاء فذكر لفظ «مجلة» فاستنبأنا عن معناه لغة فسقنا إليه عبارة القاموس : مجلة بالفتح ، الصحيفة فيها الحكمة ، أو كل كتاب .

وفي اليوم الثاني[1] من أيام إقامتنا دعانا الشيخ عبد الحليم بن سماية إلى زورة محله في الساعة الخامسة مساء ، وكان منزله في أقصى المدينة وأعلاها ، فصعدنا إليه على السيارة الكهربائية . سارت بنا في خطها الحديدي نحو 20 دقيقة ، ووقفت أمام ضريح الولي الكامل الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان الأزهري المتوفى سنة 1208هـ ، فنزلنا هناك ، ووجدنا الشيخ عبد الحليم في انتظارنا فذهب بنا إلى داره ، وارتقى إلى طبقتها العليا ، وتنفست مدة المسامرة فتواصلت نحو ست ساعات .

جرّتنا المناسبة إلى الخوض في شؤون المدرسين ، فقلنا ليس المدرس حقيقة من يلقي المسائل على حسب ما تحويه الأوراق جيدها على رديئها ، من غير أن يعرضها على محك النقد ويزنها بمعيار النظر ، فإن من المسائل ما لم تحط التآليف بتحقيقاتها واستخراج خباياها . فقال لي الشيخ مثال ذلك من فن البيان الاستخدام ، فإن البيانيين يعدونه من المحسنات اللغوية ، ولا يبينون كيف يعود حسنه إلى المعنى ثم استرسل في بيان رجوعه إلى المعنى بكلام يشهد لصاحبه بسلامة الذوق والولوع بالكشف عن أسرار المسائل ، دون الاكتفاء بتصوراتها المجردة .

ثم استطردنا أن الاستخدام لا يختص بالضمير كما نص عليه الشهاب

---

(1) يوم الأحد 13 رمضان الموافق لـ 20 نوفمبر .

الخفاجي[1] في حواشي البيضاوي ، بل يكون بغيره كالاستثناء نحو : أبدأ حديثي ليس بالمنسوخ إلا في الدفاتر ، والتمييز نحو أخت الغزالة إشراقاً وملتفتاً ، والعطف وعليه خرج قوله تعالى : ﴿وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ . . .﴾[2] فالمراد من الصلاة معناها الشرعي ، ووقع عطف «ولا جُنباً» باعتبار معناها المجازي وهو المسجد . وأطلعني على صدر مقالة له فصيحة المباني ، شريفة الموضوع ، مفرغة في قالب الإنشاء العصري ، ووعدنا بإرسالها عند استكمالها[3] .

وكان هذا الفاضل زار الحاضرة قديماً ، وأقام بها ثمانية أيام أخذ فيها المقولات العشر تدريساً عن الشيخ محمد بن عيسى الجزائري رحمه الله .

والتقينا بالعالم الشهير الشيخ عبد القادر المجاوي[4] بعد شهودنا مجلس درسه جوهرة التوحيد بمسجد سيدي محمد الشريف ، فحيانا بتحيات أكدت للتعارف القديم ميثاقاً ، وصبغت علينا شيمه الشريفة من المؤانسة كأساً دهاقاً ، وحين ما عزمنا على الانصراف ، أخذ علينا عهداً على تجديد الزيارة في الليلة القادمة فعقبنا ذلك العهد بالوفاء . وبعد صلاة التراويح ذهب الشيخ ونحن في صحبته إلى جامع الشريف . وأقرأ به درسه الاعتيادي من الأربعين النووية[5] في مجمع عظيم من الخاصة والعامة ، وكان حديث تلك الليلة : «الدين النصيحة» .

ثم عدنا إلى السمر ومعنا جماعة من التلامذة . نستحسن من دروس هذا الشيخ اقتصاره في كل فن على تقرير مسائله التي يشملها موضوعه وعدم خلط بعضها ببعض . وقد كنت ، عفاكم الله ، ممن ابتلي درسه باستجلاب المسائل المختلفة الفنون ،

---

(1) أحمد الخفاجي (1069هـ - 1659م) فقيه من أهم مؤلفاته : عناية القاضي . وهو شرح على تفسير البيضاوي .

(2) الآية 43 ، سورة النساء .

(3) يبدو أن الشيخ محمد الخضر حسين كان أثناء رحلته يعرف بمجلة السعادة العظمى التي كان يصدرها في تلك الفترة كما كان يدعو العلماء للمساهمة في تحريرها بمقالاتهم وأبحاثهم .

(4) المتوفى يوم 6 أكتوبر سنة 1914م بقسنطينة .

(5) هو كتاب ((الأربعون حديثاً)) لصاحبه محي الدين أبي زكرياء النووي سنة 1277م

وأتوكأ في ذلك على أدنى مناسبة حتى أفضى الأمر إلى أن أتجاوز في الدرس شطر بيت من ألفية ابن مالك[1] مثلاً ، ثم أدركت أنها طريقة منحرفة المزاج ، عقيمة من الانتاج ، ونرجو أن تكون توبتنا من سلوكها توبة نصوحاً .

ولهذا الشيخ أيضاً خلق عظيم نحمده عليه ، وهو سلوكه في معاملة التلامذة طريقاً وسطاً لا ينحط عن مكانة عزة النفس ، ولا يرتفع عن سماحة التواضع ، تحمله عواطف النسب العلمي عن العناية بشؤونهم ، وبذل الوسع في قضاء مآربهم ، ويصدّه علوُّ الهمة عن مجاراتهم فيما يزري بخطته الشريفة :

أأغـــرســـه عـــزا وأجـنـيـــه ذلـة
إذا فـاتـبـاع الجـهـل قـد كـان أحـزمـا[2]

ولعل هذا الخلق الذي لا ينبل الرجل إلا به هو الذي غرس له في قلوب الجمهور مودة واحتراماً . وغالب القضاة وعدول المملكة الجزائرية تخرجوا على يديه ، لأنه كان درّس بقسنطينة أيضاً سنين متطاولة .

وشهدت مجلس ختم العالم الفاضل الشيخ السعيد لصغرى السنوسي بجامع سيدي رمضان بحضرة جماعة من العلماء وجم غفير من غيرهم ، فقرع الأسماع بمواعظ حسنة ونصائح مفيدة ، ودبجها بمسائل شتى من النحو والبيان والبديع ، وساق في أثنائها أحاديث فضل التسمية باسمه ﷺ «محمد» .

وفي صبيحة تلك الليلة اجتمعنا ببعض المنتسبين للعلم ، فسئلنا عن رتبة تلك الأحاديث فقلنا قد نقلها جماعة من المحدثين ولم يتعقبوها بشيء . والى ذلك استند الشيخ في إيرادها . ثم ذكرنا له ما نعهده لملا علي قارى في شأنها . وهو من علامات وضع الحديث مناقضة لما جاءت به الشريعة مناقضةً ظاهرة ، ومن ذلك أحاديث من اسمه محمد أو أحمد ، وأن كل من تسمى بهذا الاسم لم يدخل النار فهذا يناقض ما علم من الدين أن النار لا يجارُ منها بالأسماء والألقاب ، وإنما النجاة منها بالإيمان

(1) منظومة في النحو ألفها أبو عبدالله محمد بن مالك المتوفى سنة 1273م .

(2) البحر الطويل .

والأعمال الصالحة .

واجتمعنا بالعالم البارع الشيخ محمد بن مصطفى خوجه[1] بدكان السيد أحمد بن مراد فمد علينا من الملاطفة رواقاً ، وفتح علينا رياض أنس كانت مغلقة أبوابها إغلاقاً ، فنظم في سلك المسامرة فرائد ، وأنشدنا من بنات أفكاره قلائد . ثم ختمنا بالتعريج على ما هو الأحسن في طرق التعليم ، فأبديت ما نراه الطريقة المثلى في هذا الموضوع ، خلاصته هو أن الرتبة الابتدائية والرتبة الوسطى ينبغي للمعلم الاقتصار فيها على تقرير المسائل مجردة عن ذكر الخلافات والأدلة الطويلة الذيل ، حتى إذا اقتصر المتعلم على إحدى الرتبتين ، أو عاقته دون الترقي لما بعدها عوائق ، فقد نال ما فيه كفاية من ير أن يخفق مدة من حياته فيما لا فائدة فيه لمثله .

أم الرتبة العليا التي لا يقصدها إلا من طمحت همته إلى أن يكون عالماً معلماً فلابد فيها من تتبع عروق المسائل واستقصاء آثارها ، وحث مطية الفكر في أنجادها وأغوارها ، على شريطة أن لا يلتفت المعلم إلى المباحث المتعلقة بعبارات المصنفين فإنها داعية إلى خلط الفنون بعضها ببعض من غير كبير فائدة ، والاشتغال بتحرير أصل من أصول العلم أفيد للطالب وأجدى ، ويستغنى في تقوية الملكة وتشحيذ الذهن بالمباحث المتعلقة بنفس المسائل .

ودعانا السيد مصطفى بن الأكحل إلى منزله ، وهو من أفاضل القوم ، لا يحل بالبلد غريب ولاسيما إن كان من أهل العلم إلا وأكرم مثواه وأحسن ضيافته ، وحضر تلك المأدبة جماعة من أعيان العلماء مثل العالم الفاضل الشيخ بوقندورة ، والشيخ عبد الحليم ، والشيخ محمد بن مصطفى خوجة فنضحوا بماء لطافتهم عن صدورنا وحشة الاغتراب ، وتساقط من بين مذكراتهم العلمية ما تلذه عيون الألباب .

وجرت ، بمناسبة قول بعض الجماعة : «أنا لا آكل لحماً وقد آكل حوتاً» ، مسألة من حلف أن لا يأكل لحماً ، هل يحنث بأكل الحوت أم لا فقال أولئك السادة لا يحنث رعاية للعرف بمقتضى المذهب المتمسكين به مذهب «أبي حنيفة»[2] فسقنا

---

(1) محمد بن مصطفى خوجة 1915 - 1960 عالم من العلماء البارزين .

(2) أبو حنيفة : النعمان بن ثابت أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي سنة 150هـ/ 767م .

نحن ما قاله «ابن كمال باشا» في تفسيره من أن «سفيان الثوري»[1] أنكر ذلك على «أبي حنيفة» محتجاً بآية ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحماً طَرِياً﴾[2] . فقال أبو حنيفة لرجل : «اسأل سفيان عمن حلف لا يجلس على بساط وجلس على الأرض هل حنث أم لا . فإن قال لا يحنث فقل له قال تعالى : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ بِسَاطاً﴾[3]» ، فلما سأله وأجابه بعدم الحنث ، وأورد عليه الآية علم أن ذلك تلقين من أبي حنيفة . وذهب المالكية إلى الحنث تمسكاً بالآية ، وهو عند تحقق العرف بتسمية الحوت لحماً مشكل لقاعدة أن العرف مقدم على القصد اللغوي ، ولم يحضرني حينئذ إلا أنه فرع مشهور بني على قول ضعيف ، وهو أن المقصد اللغوي يقدم على العرف أو العمل بقاعدة أن الحنث بأقل الوجوه ، بخلاف البرّ فقاعدته أنه لا يقع إلا بأكمل الوجوه ، فمن حلف ليسافر لا يبّر في يمينه إلا إذا سافر مسافة القصر ، وإن سمي ما دونها سفراً عرفاً ولغة . ومن حلف لا يسافر حنث بسفره دون مسافة القصر .

وبعد طي بساط ذلك المجلس ، ذهبنا إلى المسجد الذي أسسه السيد «مصطفى بن الأكحل» ، فشهدنا مجلس ختم «الشيخ عبد الحليم» لكتاب في التوحيد لا أتذكر الآن ما هو ، لأن الشيخ إنما قرر ما يتعلق بسورة «الإخلاص» ، وبين كيف ينتزع منها العقائد الدينية بطريقة استحسنتها جداً ، حتى أني كنت من المحرضين له على إقراء درس في التفسير زيادة عما هو بصدد إقرائه مثل درس «السعد على التخليص» .

ثم عدنا إلى السمر ، وتناولنا أطراف البحث في مسائل منها مسألة اشتراط الولي لعقد نكاح المرأة ، فأفادنا الشيخ «محمد بن مصطفى خوجه» أن أبا يوسف[4] ومحمد بن الحسن[5] يقولان باشتراط الولي ، وهو قول عامة الفقهاء ، وأسند ذلك إلى عقود

(1) من أئمة الحديث وعلم الكلام في العراق توفي سنة 161هـ/ 737م من مؤلفاته ((الجامع الكبير)) .

(2) الآية 12 ، سورة فاطر .

(3) الآية 19 ، سورة نوح

(4) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الانصاري ويُكنّى أبا يوسف توفي سنة 182هـ/ 798م .

(5) محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 189هـ/ 804م تلميذ أبي حنيفة ثم لأبي يوسف واشتهر مع هذا الأخير بصاحبي أبي حنيفة .

الجواهر المتهمة . ثم مال بنا الكلام إلى أن الواجب على العلماء أن يسعوا في بيان أحكام الشريعة وبث تعاليمها في صدور الناس وأن يسألوا عن ذلك . فنقل لنا ذلك الشيخ عن «ابن العربي» ما يؤيد هذا ، وهو أن المسائل الدينية يجب على العالم تعليمها ولو بدون سؤال ، بخلاف غيرها فلا يطالب بتعليمها إلا عند السؤال . وأخذ الجماعة في استحسان السفر ، وبيان فوائد الرحلة فقلنا تأييد ذلك أن «ابن العربي بعد أن حقق إباحة الاستياك للصائم بالنقل عن «القاضي سيف الدين» في كتاب للعارضة قال : «ويوم حصلت هذه المسألة قلت الحمد لله الذي أفادني في هذه الرحلة ، وعلمت أني لو لم أحصل غيرها لكفتني» .

وقال في الأحكام عند قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ [1] اختلف علماؤنا في راكب البحر ، هل حكمه الصحيح أو الحامل؟ فقال ابن قاسم[2] حكمه حكم الصحيح ، وقال أشهب[3] حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر وابن القاسم لم يركب البحر ، ولو عاين ما يشاهده المسافر فيه لكان رأيه كرأي أشهب .

والتقينا[4] بالفاضل البارع السيد «يوسف بن سماية» ، فوقفنا معه موقف التسليم والوداع أمداً لم يتجاوز 20 دقيقة ، وقد لاح لنا على خطاباته ملاطفة جميلة تشف عن جودة فكرة وحلاوة في الأخلاق .

استطلع رأينا في تفسير قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [5] على معنى ابتدى فيه نزول القرآن ، فقلنا ذلك التفسير صحيح ، ونسبه المفسرون إلى ابن إسحاق[6] ، والأحاديث الدالة على إنزال القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ،

---

(1) الآية 189 ، سورة الأعراف .

(2) أبو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم المتوفى سنة 191هـ/ 806م أشهر تلاميذ مالك بن أنس .

(3) أشهب بن عبد العزيز روى عن مالك بن أنس وكان شديد المعارضة لابن القاسم .

(4) ((السعادة العظمى)) عدد21 ص : 332 .

(5) الآية 185 ، سورة البقرة .

(6) محمد ابن إسحاق له كتاب ((المبتدأ)) و((المغازي)) توفي سنة 150هـ/ 767م .

وإن كانت صحيحة ، لا يتعين حمل الآية على معناها .

ودفعتنا المناسبة إلى الكلام على العمل بالحديث الضعيف . فقلنا قال الفقهاء : «إن الحديث الضعيف لا يعمل به في أحكام الحلال والحرام مطلقاً ، ويعمل به في فضائل الأعمال بثلاثة شروط : أن لا يكون شديد الضعف ، ولا يعتقد العامة نبوته لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله ، وأن يندرج بمعناه تحت قاعدة كلية من قواعد الشريعة» . وذهب أبو بكر بن العربي إلى أن الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقاً .

وسامرنا بدكان السيد علي بن الحداد الشيخ مصطفى ابن الطالب أحد علماء تلمسان والمتولى خطة الإفتاء بصور الغزلان ، وكان له ميل شديد إلى المباحثات العلمية ، ويحب التطلع على علل المسائل[1] ، وربما هجم على إبداء ما يلوح له من ذلك .

حاول في أثناء المذاكرة أن يفرق بين الكفارة والحد في عرف الشريعة بأن الكفارة تستعمل في عقوبة ما هو حق لله ، والحد يطلق على عقوبة ما فيه حق المخلوق ، فنازعه بعض من الحاضرين بأن عقوبة الزنى تقع على ما حق لله وتسمى حداً ، فقلنا إن كثيراً من الفقهاء يطلقون القول بأن الحق في الزنى لله ، ويبنون على هذا أنه إن تاب برئت ذمته ، والتحقيق أن لأقارب المرأة المُزْنَى بها في ذلك حقاً أيضاً ، لما يلحقهم من العار وهتك الحركة ، وذلك مما لا تغفره التوبة كسائر الحقوق المتعلقة بالمخلوقين والأمثل أن يقال أن الحدود تستعمل في العقوبات الخالصة ، والكفارة يغلب إطلاقها على الطاعات التي تقع في مقابلة جناية .

وانجر بنا البحث إلى مسألة تقديم الكفارة على الحنث ، وذكر الخلاف في أجزائها ، فقلنا ذهب أبو حنيفة إلى أن سبب الكفارة هو الحنث ، وعليه فلا يجزى التكفير قبله . ورأى أن الكفارة بدل عن البر ، فلزم ن يكون موضعها عدم المبدل منه . وذهب مالك إلى أن سبب الكفارة هو اليمين ، والدليل هو قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[2] فإن المعاني إنما تضاف إلى أسبابها ، وعليه فيجزى التكفير ولا يلزم

---

(1) سور الغزلان : بلدة بالجزائر معروفة بآثارها الرومانية .

(2) الآية 89 ، سورة المائدة .

عليه تقديم الحكم على شرطه ، لأن الحنث إنما هو شرط في انحتام الكفارة من غير تخيير لا شرط في أصل وجوبها .

وحدثنا الشيخ مصطفى المذكور أنه كان قرر درساً بمحضر بعض الإفرنج ، وقال في خلاله إن العرب هم سكان الحاضرة وإن كانوا أعاجم والأعراب هم سكان البادية وإن لم يكونوا من العرب ، فعارضه بعض الحاضرين بأن المتعارف أن العرب اسم الجيل المخصوص سواء سكنوا البادية أو الحاضرة ، والأعراب اسم لمن يسكن البادية من ذلك الجيل ، فطالعنا عندئذ بعض الكتب في اللغة فعثرنا فيها على شبهة فيما قرره الشيخ في المصباح[1] . وأما الأعراب بالفتح فأهل البدو من العرب ، الواحد أعرابي .

وزاد الأزهري[2] فقال سواء كان من العرب ومن مواليهم ، قال فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب ، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاً ، وذكر حديث : «أُحبُّ العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي» .

فقال الشيخ مصطفى : «هذا الحديث تكلم فيه» . بيان ما أشار إليه أن الحديث رواه البيهقي[3] في «الشعب» ، والحاكم في «المستدرك» ، والطبراني في «معجمه» كلهم من طريق يحيى بن بريد ، وهو ممن يروي المقلوبات وضعفه أحمد وغيره .

وتابع يحيى على رواية هذا الحديث محمد بن الفضل بن عطية . ومحمد بن الفضل متفق على ضعفه ، واتهامه بالكذب فلا يصح للمتابعات ، ولكن للحديث شاهد رواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية شبل بن العلا عن أبيه عن جده عن أبي هريرة[4] مرفوعاً : «أنا عربي والقرآن عربي وحديث أهل الجنة عربي» ، وهذا الحديث ضعيف فقط لا صحيح ولا يثبت به أن كلام أهل الجنة عربي إذ الأحاديث

---

(1) المصباح في النحو ألفه المطرزي المتوفى سنة 596هـ/ 1213م .

(2) أبو منصور محمد الأزهري المتوفى سنة 363هـ/ من علماء اللغة له كتاب ((التهذيب)) .

(3) أحمد البيهقي متوفى سنة 449هـ/ 1066م محدث وفقيه شافعي له كتاب ((السنن والآثار)) .

(4) أبو هريرة : صحابي لازم الرسول ﷺ وروى عنه الأحاديث توفي سنة 59هـ/ 676م .

الضعيفة لا يُكتفى بها في العمليات .

وزرنا المكتبة العمومية ، فرأينا فيها عدة من الكتب الغريبة مثل «القبس على موطأ مالك بن أنس» ، و«ترتيب المسالك على موطأ مالك» . «وقد» هجت أسفاً على أني لم أتمكن من زيارتها إلا في آخر يوم من إقامتنا ، حتى أني لم أستوف مطالعة أنموذج الكتب بتمامه .

«السعادة العظمى»[1]

1) مجلة السعادة العظمى : عدد19 و16/20 شوال 1322هـ - 23 ديسمبر 1904 ص289 - 304.
والعدد 21/ غرة ذي القعدة 1322هـ - 7 جانفي 1905 ص : 332 -336 .

(الرحلة الثانية)

الرحلة الجزائرية
1922

أحمد حسين المهيري

نروم الكلام على رحلتنا إلى القطر الجزائري بإيجاز فنقول :

منذ مدة ونحن في غاية التشوق ، إلى الاطلاع على أحوال القطر الجزائري المجاور لمملكتنا[1] ، إذ نرى من العار عدم الاطلاع على أقرب الممالك الإسلامية إلينا ، فعزمنا بحول الله سبحانه وتعالى أن نجري رحلة استكشافية ، وننشر خلاصتها إلى قرائنا الكرام .

وفعلاً بارحنا مدينة «صفاقس»[2] في أوائل سبتمبر[3] ، فأقمنا بسوسة[4] أياماً . ثم بارحناها في 14 سبتمبر الفارط على السابعة من صبيحة يوم الخميس في 14 من الشهر المذكور ، فوصلنا إلى «القصرين»[5] مساء ذلك اليوم حيث أقمنا بضع ساعات .

والقصرين عبارة عن دشرة[6] صغيرة بها سوق أسبوعي ينتصب يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وبها تجار بدكاكينهم ، وتجار لشراء «الحَلْفَاء»[7] التي توجد هناك ، بعد ذلك يرسلونها إلى «سوسة» على طريق السكة الحديدية . ومنها «تُوسَق»[8] إلى إنكلترا .

وبدشرة «القصرين» مياه متدفقة تنبع من جبل يبعد عنها بنحو كيلومتر فقط .

---

(1) يقصد المملكة التونسية مثلما كانت تسمى في تلك الفترة .

(2) عاصمة الوسط التونسي .

(3) سبتمبر 1922 .

(4) عاصمة الساحل التونسي .

(5) من مدن الشمال الغربي للجمهورية التونسية المتاخمة للحدود الجزائرية .

(6) بلدة صغيرة .

(7) نبات شوكي يصنع منه الورق ، ومنه تعد الحصر ونماذج من الصناعات التقليدية .

(8) تصدر .

تسمى هذه المياه «عين القائد» ، وهي كافية في هذا الوقت لسقي السكان . وفي الصيف تكون مياهها باردة ، وفي الشتاء حارة قليلاً عند خروجها من الجبل . وقد اعتنت بها الحكومة وأدارت بها بناء محكماً ليقيها من الأوساخ ، وجلبتها قنوات إلى وسط السوق ، وهو من الأعمال التي تشكر عليها .

أما التجارة بـ«القصرين» فهي الآن في كساد كبير ، بسبب قلة الصابة والأمطار ، ويطلب سكان هذه الجهة من الحكومة بغاية الإلحاح أن تؤسس لهم جامعاً للصلوات ، و«مكتباً دولياً»[1] لتعليم أبنائهم باللغتين العربية والفرنسية ، وهم محقون في هذين المطلبيْن المعقولين .

ثم بارحناها ليلة الجمعة عند منتصف الليل ، فوصلنا إلى «تالبت» على الساعة الأولى بعد منتصف الليل المذكور ، أي بعد ساعة من سفرنا . فنزلنا بها ، وأقمنا بقية الليلة ويوم الجمعة في 15 سبتمبر إلى الساعة الواحدة بعد الزوال .

و«تالبت» اسم روماني قديم ، وهي عبارة عن «دشرة» صغيرة أيضاً بها بعض دكاكين قليلة العدد ، وتجارها بعضهم من مدينة «صفاقس» وبعضهم من مدينة «قفصة»[2] . وبها «مناشر»[3] للحلفاء أكثر مما في «القصرين» . ثم سافرنا منها إلى «فريانة» في «الأوتوموبيل»[4] الذي قدم من «تبسة»[5] .

و«تالبت» تبعد عن فريانة بنحو تسعة أميال . فوصلنا إلى فريانة بعد حصة زمانية قليلة ، ووجدنا بها فرساناً كثيرين . فسألنا عن ذلك فقيل لنا إنه يوجد بها الآن «زردة سيدي أحمد التليلي»[6] . ووجدنا الموكب ضم كثيراً من الفرسان ، والمتفرجين الذين أتوا من كل فج عميق .

---

(1) مدرسة حكومية .

(2) من مدن الجنوب الغربي للجمهورية التونسية تقع على مقربة من الحدود الجزائرية .

(3) مساحات زراعية لنبات الحلفاء .

(4) السيارة .

(5) مدينة جزائرية تقع بشرق الجزائر بمحاذاة الحدود التونسية .

(6) ولي من أولياء الجهة تقام له الولائم والحفلات في كل سنة ويؤمه الزوار .

وكانت الطبول تقرع ، والفرسان تتسابق في ميدان متسع يبعد عن البلد بنحو الكيلومتر . و«الزردة» عند سكان تلك الجهات عبارة عن أن كل عائلة تحضر قصعة من «الكسكسي» المزدان بقطع اللحم ، وهي تكفي لأن تشبع عشرة أنفار . وقد شاهدنا أرباب الولائم يطعمون كل الحاضرين من غير تخصيص .

وبعد انتهاء الأكل على حدود الساعة الرابعة من زوال يوم الجمعة 15 سبتمبر ، تسابق الفرسان ، ونقرت الطبول ، وصرخت البنادق من فرسان البادية ، ودامت المسابقة نحو ساعة . ثم دخل الفرسان إلى البلد ، وأجروا ألعاباً متنوعة تدل على تأصّل الفروسية عند العرب . ودامت تلك حول ضريح السيد المشار إليه نحو نصف الساعة . والزردة تعرف عندنا بصفاقس[1] «بالوعدة» فيقولون : إن صح فلان من مرضه فإني أؤدي «وعدة» لسيدي فلان . ولا ندري سبب وجود هذه العوائد عند المسلمين ، مع أن المتصفح للشريعة الإسلامية لا يكاد يجد لها أصلا . ويا حبذا لو جعل المسلمون هذه العوائد في صور جميلة كالمعارض الأوروبية ، فتروج تجارتهم وتحسن في الله عقيدتهم .

ومدينة «فريانة» بها عين واحدة ، ماؤها أكثر من مياه «القصرين» . والعين المذكورة كافية لسقي السكان والبساتين التي في أحوازها . وتسمى هذه العين «عين الكرماء» وهي كائنة بطرف البلد . و«فريانة» كثيرة الناءات ، وبها جامع لإقامة الجمعة ، وهو جامع «سيدي أحمد التليلي» . وغالب بنائها على الطراز العتيق . وقد أقمنا بها نحو ثلاث ساعات ، ثم رجعنا إلى «تالبت» على الساعة 5 من مساء الجمعة ، حيث قضينا ليلة السبت «بتالبت» إلى الساعة الثامنة من صبيحة اليوم المذكور في 16 سبتمبر إلى أن وصلت إلينا الاوتوموبيل من فريانة قاصدة تبسة ، فركبنا في تلك الساعة السيارة الكهربائية قاصدين تبسة وسرنا في الطريق غير «المكيس»[2] ، بل تارة نلقى بها رمالاً ، وأخرى أرضاً صحيحة ، وطوراً نسير في الجبال . وكان السبيل في

---

(1) من المعلوم أن صاحب الرحلة من أصيلي مدينة صفاقس .

(2) يعني غير المعبد ، والكلمة معرّب caillasse من كلمة caillou وفي الأصل ورد التركيب هكذا : الغير المكيّس .

غاية الصعوبة ، والسيارة تدور فوق الجبال كي تصل إلى الطريق التي مهدتها الحكومة .

والمظنون أنها عازمة على تكييس البقية ، وعليه فإننا بهذه المناسبة نطلب من الحكومة التونسية أن تمهّد للتكييس في القريب العاجل القطعة الصعبة من هذا الطريق -طريق تبسة- لأن السيارات الكهربائية دائماً يقطع لها التعطيب بسبب صعوبة الطريق ، ولا زلنا مجدين في السير حتى بلغنا إلى «القمرق»[1] المسمى بوشبكة عند الزوال ، فاسترحنا قليلاً .

ولما وصلنا إلى مركز بوشبكة وقفت السيارة ليقع تفتيشها من الأعوان المكلفين بذلك . ومركز بوشبكة يبعد عن تبسة بنحو 35 كيلومتر ، وواقع بالحد الفاصل بين القطرين التونسي والجزائري . وهو عبارة عن بناء متسع واقع أعلى الجبل ، وبه مساكن للمكلفين بالتفتيش ، وهم عبارة عن متوظفيْن فرنسيَّيْن ، ولهما أعوان تونسيون راكبون على خيولهم لإجراء الفحص للبضائع الصادرة من المملكة التونسية والواردة من الجزائر .

وبعد إتمام التفتيش اللازم بارحنا المركز المذكور على الساعة 11 و30 صباحاً ، وذلك يوم السبت 16 سبتمبر ، فسارت بنا السيارة في التراب الجزائري في طريق غير مكيّس طوله 28 كيلومتر . وبعدها وجدنا طريقاً مكيّساً ، وكان على حكومة الجزائر أن تُكيّس الطريق المذكور السالف إلى أن وصلنا إلى مدينة تبسة على الساعة الأولى بعد الزوال .

وقد دخلناها فألفيناها مدينة يحيط بها سور محكم البناء ، في غاية الارتفاع ، يدل على مهارة البنائين الذين شادوه ، وبالمدينة أربعة أبواب وبعض آثار رومانية ، منها كنيسة يقصدها السواح . وقد حافظت عليها الحكومة محافظة تامة ، وجعلت حراساً يحرسونها وينظفونها ولكثرة الاعتناء بها يظن المتسوح أنها حديثة البناء . وبتبسة جامع واحد لصلاة الجمعة والصلوات الخمس ، وهو أيضاً في غاية النظافة والحسن

---

(1) أعوان القمارق في الحدود التونسية الجزائرية .

والبهرجة . وسكانها جلهم مسلمون وبها جالية أوروبية قليلة جداً . وأهلها في غاية اللطافة والكياسة وإكرام الضيوف والفرح ، وقد لاقينا منهم كل حفاوة وإكرام .

وبالمدينة عين[1] يشرب منها السكان وتحيط بها بعض البساتين ، وبناءات عصرية «فيلات» جميلة جداً . ويوجد بجنوب المدينة سوق واسع المساحة محكم البناء خصص نصفه لبيع الغلال والخضر ، والنصف الآخر لبيع الحبوب ، وحوله دكاكين لبيع البقول والفواكه .

وموقع السوق المذكور بساحة كبيرة يقصدها أهل البوادي يوماً في الأسبوع لبيعهم وشرائهم . وبتلك المساحة عدة دكاكين لبيع الحبوب والتمر وغيره .

هذا وقد اجتمعنا بثلة من علماء تبسة وأدبائها فألفيناهم من خيار القوم ، ومن المتضلعين في الفنون والآداب ، مع شدة التمسك بالدين الحنيف كثّر الله من أمثالهم ، وأعانهم على ما أنيط بعهدتهم . كما اجتمعنا بأعضاء الجمعية الخيرية ورئيسها فوجدناهم قائمين بأعمال البر والإحسان أتم قيام ، الأمر الذي يوجب لهم الشكر والثناء ، ويخلدهم في بطون التواريخ آثاراً جميلة . فلا يسعنا إلا شكرهم شكراً جزيلاً متمنين أن ينسج على منوالهم بقية أعضاء الجمعيات الخيرية الإسلامية بالقطر الجزائري وغيره . واشتراك الجمعية المذكورة فرنك واحد في الشهر ، زيادة عما يتبرع به أرباب الثروة والغيرة والشفقة . والمشتركون لا يبخلون بإمدادها ؛ فعندما يأتيهم الطالب يدفعون له المعلوم بدون مماطلة ولا تسويف .

وقد اجتمعنا أيضاً بمدينة تبسة بالسادة الآتية أسماؤهم وهم : السيد صادق العقيد الصفاقسي ، والسيد الصادق بن عياد ، والسيد نابي عمر ، الكاتب الشهير ، والسيد علي بن عباس بن حمانة ، والسيد عمر بن عبد السلام الوكيل ، والسيد أحمد الجدري ، فأظهروا لنا غاية الانعطاف ، والبشاشة ، وحسن الإقتبال الأمر الذي يجعلنا مدينين لهم على الدوام عما لقيناه من الحفاوة والإكرام بتبسة بقية يوم السبت في 16

---

(1) لاحظنا أن المرحوم المهيري شديد العناية بمصادر المياه والعيون الجارية مركزاً اهتمامه بها في كل بلدة يؤمها في رحلته هذه .

سبتمبر ويوم الأحد 17 منه .

ثم بارحناها صبيحة يوم الاثنين على الساعة السادسة صباحاً حيث امتطينا السيارة الكهربائية قاصدين مدينة العين البيضاء التي تبعد عن تبسة 80 كلم ، وهي واقعة في الشمال الغربي من تبسة ، فسارت بنا السيارة بسرعة غريبة ، ومررنا على دشرة الشريعة التي هي على غاية التنظيم والتنسيق واتساع الطرقات . فمكثنا بها نحو خمس عشر دقيقة ، وألفينا بها كتاتيب لتعليم القرآن الكريم على النمط العتيق حيث إنه لا زال يوجد بالقطر الجزائري جانب من الكتاتيب العربية سيما في البادية .

كما يوجد في بعض مدنها كتاتيب لتعليم القرآن الكريم ، مع بعض من العلوم العصرية والقصائد والأناشيد الحماسية ومبادئ بعض العلوم والمتون ، إلا أن الكتاتيب التي من هذا النوع الأخير قليلة جداً ، وتعوزها الأساليب العصرية مثل الأساليب الموجودة بالمدارس القرآنية التونسية .

ثم بارحنا «الشريعة» . وسرنا إلى أن وصلنا إلى بلدة «مسكيانة» ، فإذا هي أكبر من دشرة الشريعة ، وبها عدد كبير من التجار والفلاحين والمالكين للربع والعقار فيما قيل لنا ، كما ألفينا بها كثيراً من الوجهاء والأعيان .

والبلد يحتوي على سوق أسبوعي يقام بها ، فمكثنا نحو نصف ساعة . ثم سارت السيارة إلى جبال وأراض زراعية خالية من الأشجار في الجبال المجاورة للأراضي . وهذه الأراضي صالحة لزراعة الحبوب وغيرها .

وأما هواؤها فهو في غاية البرودة حتى إنه يخيل لمن لا يعرفها أنه في أوربا ، وكانت مناظر المزروعات والأشجار الجبلية الكائنة على يمين الطريق وشماله في غاية الحسن والجمال ، وكانت الرياح تعبث بغصون الأشجار وتداعبها . ولا زالت السيارة مجدة في سيرها السريع من بلد مسكيانة إلى أن وصلنا إلى العين البيضاء على الساعة العاشرة والنصف صباحاً . فقابلنا جل أعيانها وتجارها وسراتها بغاية الفرح والسرور . جزاهم الله أحسن جزاء . فاسترحنا قليلاً ، وإذ أقبل علينا بعض الأعيان والشبيبة الجزائرية فألفينا منهم اقتبالاً شيقاً ، هنؤونا بسلامة القدوم .

وعندما حللنا بالعين البيضاء تقابلنا مع الكاتب الوطني الغيور المخلص السيد

الأمير خالد [1] مدير جريدة «الإقدام»[2] الجزائرية الغراء، فإذا هو رجل شجاع ذو همة سامية وأخلاق راقية، طويل القامة، كثيف اللحية، كريم الطباع، حسن الأخلاق، متواضع، ذو غيرة وطنية، حر الضمير، مخلص لوطنه، وهو عنصر بالمجلس المحلي العام بمدينة الجزائر، وله عدة وسامات فرنسية منها وسام «الليجيون دونور»[3] وقد خدم بالجندية الفرنسية، وحصل على رتبة قبطان، وله تضلع تام باللغة الفرنسية، ومعلومات واسعة في اللغة العربية.

وسبب قدومه إلى العين البيضاء أنه لما خطب لابنه الأمير الهاشمي كريمة الفاضل السيد محمد الخرشي العدل بالمحكمة الشرعية بالمكان، وعقد لابنته على ابن الوجيه السيد محمد بن ساسي قاضي العين البيضاء شرّف المدينة المذكورة بتلك المناسبة، فأقمنا بالعين البيضاء ثلاثة أيام. وتقابلنا في خلالها مع وجهاء وأعيان المدينة منهم العلامة الزاهد الخيّر السيد محمود قشوط الذي كنا نشرنا له بالعددين 12 و13 من جريدتنا رسالة في مسألة زكاة الأوراق المالية.

كما اجتمعنا في تلك المدينة ببعض علماء «سطيف» وأفاضلها حين قدومهم لها، وتجاذبنا معهم أطراف الحديث في كثير من المسائل العلمية. ولما طالت المجادلة سألَنا أحدهم، وأظنه شيخ طريقة بسيط، في أي مكان زاولتم التعليم؟ . . . فأجبناه بأننا زاولناه بالأزهر الشريف حيث قضينا به عدة سنوات، كما زاولنا بالمدرسة الإعدادية الليلية بمصر، فأخذ يسألنا عن المشائخ الذين قرأت عنهم ليظهر لنا أنه صاحب معرفة بعلماء. فلاح لي أن السكوت عنه هو الصواب، فسكتنا. وختمت المحادثة اللطيفة التي قطعها عنا ذلك الزائر المتصوف.

أما مدينة العين البيضاء فإنها مدينة جميلة، بها مياه عذبة تنبع من عين قريبة من المدينة، وتلك المياه خفيفة على المعدل، وهواؤها معتدل ممزوج بالبرودة. وكان

---

(1) الأمير خالد بن الهاشمي بن عبد القادر (1875 - 1936) ولد بدمشق، وانتمى للعسكرية. وارتقى إلى رتبة (كابتان)، ساهم في الحركة الوطنية بالجزائر، وأصدر جريدة (الإقدام).

(2) صدرت من سنة 1920 إلى سنة 1923.

(3) وسام الشرف.

حلولنا بالعين البيضاء يوم الاثنين 18 سبتمبر على الساعة العاشرة والنصف صباحاً ، وكان ذلك يوم سوقها الأسبوعي ، فوفدت إليه سكان البوادي للبيع والشراء . وبالمدينة عدد وافر من التجار ، وهم مواطنونا «الجرابة»[1] وسوقها كبير إلا أن الكساد كان ضارباً أطنابه بها لعدم وجود الصابة الكافية في السنة الماضية بسبب قلة الأمطار . وهي بلاد معدة لزراعة الحبوب ، ويوجد بها جميع مواد المعاش كالخضر وغيرها بكثرة ، وسعر كيلو لحم الضان[2] العال يساوي 2,05 واللّيترة من الزيت تساوي 3,05 الخ .

ولسكانها من الأخلاق الكريمة ، والسجايا الحميدة ما يحمل الزائرين على شكرهم والثناء على همتهم . وقد لاقينا منهم إكراماً زائداً وحسن اقتبال جازاهم الله أحسن الجزاء . وقد أقمنا بها إلى يوم الأربعاء في 20 سبتمبر على الساعة الرابعة مساء حيث بارحناها على الرتل[3] القادم من «خنشلة» إلى «قسنطينة» .

ولما ركبنا الرتل شيعنا إلى المحطة بعض من أفاضلها ، وشبيبتها المتنوّرة . فسافرنا جميعاً وسار بنا الرتل قاصداً مدينة قسنطينة . أما الأمير خالد ، خلّنا الحميم ، فإنه نزل بمحطة الخروب لانتظار الرتل القادم من قسنطينة للتوجه إلى الجزائر . صاحبته السلامة في الظعن والإقامة . وأما أنا فانتقلت إلى الرتل الذي لا يتجاوز قسنطينة ، وهو رتل أكبر من الأول ، وقضبان سكتّه منفرجة أكثر من الأول . فوصلنا إلى قسنطينة على الساعة الثامنة ليلاً . وهي تبعد عن مدينة العين البيضاء بـ80 كيلومتراً ، ونزلنا أوتيل في غاية الحسن والاتساع والنظافة والترتيب ، فقبلنا مستخدموه بغاية البشاشة والإكرام .

---

(1) نسبة إلى جزيرة جربة بالجنوب الشرقي للجمهورية التونسية . وقد عرف أهلها بتعاطي التجارة والسياحة في الأقطار المغاربية لهذا الغرض .

(2) لحم الضان يعني لحم الخروف .

(3) قطار السكة الحديدية .

ثم زرنا في 23 سبتمبر صحبة السيد مامي إسماعيل بن عبدة [1] إدارة «الجمعية الخيرية الإسلامية» فألفيناها على أحكم نظام. وحصل لنا سرور كبير من زيارتها، وهي في غاية الاتساع والتنظيم، ووصفها باختصار أنه عندما يدخلها الزائر يجد مكتباً فسيحاً مزداناً بالأشجار، ودائرة جدرانه محاطة وموشاة بالأزهار.

ويوجد في ذلك المكان قاعة فسيحة «صالة» للعيادة الطبية حيث إن الجمعية تداوي على نفقتها، وتختن اليتامى مجاناً. وبداخل هذه القاعة قاعة أخرى لاجراء العمليات، وبها غالب الآلات الطبية التي اقتنتها الجمعية. وقد تبرع حكيمان فرنسيان أحدهما اختصاصي لمرض العيون والآخر في الجراحات ببعض سوائع [2] يومية لمعالجة المرضى الوافدين على الجمعية الخيرية مجاناً، فلا يسعنا إلا أن نشكرهما على عنايتهما غاية الشكر.

ثم توجد بالمكان قاعة أخرى لمجلس الإدارة، وبها كراسي، كل كرسي مكتوب عليه اسم صاحبه ورتبته في المجلس المومأ إليه، وقد صادف أن وجدنا بالإدارة الكاتب للقلم العربي وهو الأديب الفاضل السيد محمد النجار بن الحاج الطاهر، ثم انتقلنا إلى قاعة أخرى مخصوصة لمعالجة أمراض العيون، ثم صعدنا إلى علو فوقها فوجدنا به أبناء الفقراء واليتامى الذين ختنوا حديثاً على نفقة الجمعية، ولكن مع الأسف أنا لم نجد بالجمعية محلاً لمعالجة المرض الأكبر الخطير مرض الجهل الفتاك أي «مدرسة علمية» لبث نور العلوم والمعارف. وكما أنها تعالج أجساد المصابين بالأمراض الحسية يجب أن تعالج أرواح المصابين بأدواء الجهل المُعدية. وبما أننا تحققنا أن العلو الذي بالجمعية يكون في الغالب شاغراً، فلا بأس بجعله مدرسة علمية عربية فرنسية، لتكون الجمعية قائمة بوظيفتها أتم قيام، ويحصل لأعضائها مزيد الاعتبار والسمعة الحسنة لدى العموم، وتخلد لهم في بطون التواريخ ذكراً جميلاً.

---

(1) مامي إسماعيل بن عبدة (1889 – 1965) من مواليد قسنطينة حيث تلقى تعليمه الأول قبل أن يلتحق بتونس للدراسة بجامع الزيتونة. عمل بالصحافة مساعداً لمدير جريدة (النجاح) التي كانت تصدر بقسنطينة.

(2) ساعات.

ومن العجب كيف تتقاعس هذه الجمعية على نشر التعليم في تلك الديار ، بينما توجد بها جمعية «برتسطانية إنكليزية» تتكلف تعليم أهالي المسلمين الفقراء ، وتكسوهم ، وتقوم بجميع لوازمهم . وغرضها الوحيد من ذلك تنصيرهم وإخراجهم من الديانة الإسلامية فلا حول ولا قوة إلا بالله .

هذا وقد اجتمعنا بكثير من أعيان البلاد فوجدناهم متعطشين للمدارس القرآنية ، ومنتقدين للجمعية الخيرية تهاونها في تعليم أبناء الفقراء ، والحال أنها في إمكانها تعليمهم .

هذا وقد اطلعنا على ما كتبه رصيفنا الفاضل صاحب جريدة «النجاح»[1] الغراء في الموضوع وانتقاده على الجمعية تهاونها بتعليم أبناء الفقراء ، غير أن أعضاء الجمعية لم يسعوا إلى الآن في بث العلم الصحيح ، وذهبت انتقادات ذلك الرصيف المحترم كصيحة في واد ، ونفخة في رماد ، ونحن لا يسعنا إلا الانتقاد على أعضاء الجمعية الخيية بقسنطينة تقاعسهم عن نشر التعليم الذي هو أوكد من معالجة الأمراض الحسية كما أسلفنا . وكأني بهم لم يسمعوا قول الشاعر الحكيم :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته
وتطلب الربح مما فيه خسران
انهض إلى الروح ، واستكمل فضائلها
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

هذا ويوجد بمدينة قسنطينة واد عميق جداً ، وخرير مياهه يسمع بشدة قوية . وهو فاصل بين المحطة والمدينة ، وعليه ثلاثة قناطر عظيمة . إحداها أمام محطة السكة الحديدية ، والثانية بمكان يسمى «باردو» ، والثالثة مرتفعة على رأس جبلين متقابلين ومربوطة بالسلاسل الحديدية ، بغاية الإحكام ، بحيث إن الذي ينظر إلى العربات التي يمر عليها المسافرون من بعيد ، يراهم بصور مصغرة جداً من كثرة الارتفاع الذي

---

(1) صدرت بقسنطينة في سنة 1919 إلى سنة 1956 لصاحبها عبد الحفيظ ابن الهاشمي .

يظهر الكبير صغيراً . ولم أر قنطرة أعظم منها سوى قنطرة «كوبري قصر النيل» التي بالقاهرة .

وبمدينة قسنطينة ساحات عديدة نخص بالذكر منها «ساحة لابروش» التي بها إدارة «البوسطة»[1] ومركز الترام[2] وبها المسرح البلدي ، وقد شرعت الحكومة بجعل تذكار للحرب الكبرى [3] بهذه الساحة . وهو عبارة عن عمود مستطيل بأعلاه ديك من النحاس الأصفر ، وحول العامود أسماء الجنود والضباط من مدينة قسنطينة الذين ماتوا بصف القتال -وهو لم يتم بناؤه حتى الآن .

وقسنطينة مدينة ذات بناءات عظيمة مرتفعة غاية الارتفاع ، وبها من الزخرفة والنظافة والترتيب ما يدل على آثار حسنة لمؤسسيها . وبها عدد كبير من السكان الأوربيين ، وطقسها في غاية البرودة ، وسكانها ذوو كرم وأخلاق ، فلا يسعنا إلا شكرهم شكراً جزيلاً عما لاقيناه منهم من الحفاوة والالتفاف .

ثم بارحنا قسنطينة يوم الأحد في 24 سبتمبر على الساعة 7 صباحاً قاصدين مدينة «باتنة» على الرتل السريع «اكسبريس» ؛ فوصلنا على الساعة 10 و20 دقيقة صباحاً ، وألفينا في انتظارنا بعضاً من سراة المدينة وأعيانها فأكرموا وفادتنا ، واستبشروا غاية الاستبشار حيث إنه أعلمهم بعض فضلاء قسنطينة بقدومنا .

وحيث كانت المحطة بعيدة عن المدينة امتطينا عربة أوصلتنا إلى أسواقها ، فوجدناها بجموع الوافدين إليها من سكان البادية والمدن المجاورة ، من مسلمين وأوروبيين ، وإسرائيليين ، وكان الناس الموجودون بالأسواق كثيرين جداً ، وذلك لأمرين : أولاً صادف أن كان ذلك يوم الأحد يوم سوقها الأسبوعي ، الذي يقدم فيه التجار من كافة الاتجاه ، بعضهم يقصد شراء الحيوانات التي يحملون عليها أنواع التمر من «بسكرة» و«توقرت»[4] وغيرهما . والبعض الآخر لبيع البضاعات والنتائج الزراعية

---

(1) مركز البريد .

(2) محطة الترام .

(3) بناء نصب تذكاري لقتلى الحرب العالمية الأولى .

(4) بسكرة وتوقرت مدينتان من مدن جنوب الجزائر اشتهرتا بإنتاج التمور الجيدة .

والحيوانية ، مع اشتراء ما يحتاجه من السوق الخ . .

وثانياً كان في اليوم المذكور سباق الخيول «كورس» ، وقد شاهدنا بها من الصافنات الجياد ما يعز وجوده في غير ذلك البلد .

وعند حدود الساعة الأولى بعد الزوال أقبلت العربات والسيارات الكهربائية وكانت كثيرة جداً وذلك لحمل المتفرجين إلى مكان المسابقة الذي يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال ، فضاق المكان المذكور على سعته بالمتفرجين والمتفرجات . ولما كانت الساعة الثالثة بعد الزوال ابتدئت المسابقة ، وقد نجح في هذا السباق أحد الفرسان الأهليين الذي هو من سكان البادية ، فجاء هو الأول ، والحائز لقصب السبق في ذلك المضمار المشهود .

وفي غضون تلك المسابقة سقط فارس من على جواده غير أنه لم يمس بسوء ، وعند الساعة الرابعة مساء انتهى السباق ورجع المتفرجون إلى المدينة ، بعضهم على السيارات الكهربائية وبعضهم على العربات ، والبعض الأخر على الخيل المسوّمة ، والباقون رجعوا مشاة على الأرجل . هذا وقد أقمنا بباتنة إلى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ، ثم بارحناها مولين وجهنا نحو مدينة بسكرة والسبب في قصر إقامتنا بباتنة أننا لم نجد بيتاً بأحد فنادقها «أوتيلات» .

مدينة في غاية اللطف والزخرفة ، غير أنه لسوء الحظ لم يوجد بها مسجد للصلاة ، وقد شاهدنا إعلانات معلقة بجدارنها في حث السكان على التبرع لإقامة مسجد بها ، ويا حبذا لو يتم الأمر . وبهذه المناسبة فإننا نحث إخواننا سكان باتنة في الإسراع بتأسيس مسجد بها من تبرعات المتبرعين ، فالله لا يضيع أجر المحسنين .

وتوجد الغلال النفيسة بها بكثرة كالعنب والخوخ وغيرها . وغلالها أكبر حجماً من غلال المملكة التونسية . والسبب في ذلك كثرة العيون والأنهار العذبة بها .

ولما وصلنا إلى مدينة بسكرة التي هي فم الصحراء على الساعة العاشرة من مساء يوم الأحد المذكور ، نزلنا بنزل لشركة «الترنزتلنتيك» يسمى «الزبيان أوتيل» كائن أمام حديقة عظيمة فسيحة الأرجاء ، حسنة التنظيم فبتنا به ليلة الاثنين . ومن الغد تقابلنا مع بعض علمائها وأدبائها وأعيانها ، وقد ألفينا من جميعهم أخلاقاً عالية ،

وإحساسات راقية ، نخص بالذكر منهم الفاضل الأديب السيد الأمين العمودي [1] والوجيه السيد عبد الله جراوي التاجر ببسكرة وغيرهما من الأماثل كثر الله من أمثالهم ، وجزاهم عنا أحسن الجزاء . وقد أقمنا بها يوم 25 سبتمبر وهي مدينة حسنة التنظيم والتنسيق .

ثم بارحنا بسكرة يوم الثلاثاء في 26 سبتمبر 1922 على الساعة الثامنة صباحاً ، قاصدين مدينة «سيدي عقبة بن نافع» ، على عربة تجرها الخيل المسومة ، فسارت بنا في الطريق الموصل لها ، وعبرنا وادياً كبيراً اعترضنا بالطريق فحصل للخيل أتعاب جمة وقيل لنا إن تهاطل الأمطار لا يمكن اجتيازه حتى تتعطل بسبب ذلك مصالح المسافرين . وعرض الوادي المذكور ينوف عن 100 متراً ، ويقال إن كبر الوادي من العوائق التي منعت حكومة الجزائر مد قنطرة على هذا الوادي ، إذ يوجد بأمريكا وغيرها من الأقطار أكبر من هذا الوادي ، مع أن ذلك لم يمنعهم من ابتناء الجسور ، وكان على حكومة الجزائر أن لا تتوانى في هذا الأمر لما فيه من المصلحة العامة للسكان على اختلاف الملل والنحل إذ حكي لنا أن البوسطة [2] تتعطل عند فيضان الوادي ، لأنها تحمل بواسطة عربة إلى مدينة سيدي عقبة .

وهذا الوادي يبعد عن بسكرة بنحو كيلومتر فقط ، وهو الحد الفاصل بين الحكم المدني والحكم العسكري [3] ، والمسافة التي بين بسكرة وسيدي عقبة تبلغ نحو 81 كيلومتر . ولما قطعناها وصلنا إلى المدينة المذكورة عند حدود الساعة الحادية عشرة أي قبل الزوال بساعة ، فاقتبلنا أهلوها بغاية الحفاوة واللطافة والإكرام ، جازاهم الله أحسن الجزاء ، وقد اجتمعنا بأفاضلها وأعيانها ، نخص بالذكر منهم الشيخ السيد

---

(1) الأمين العمودي (1890 - 1957) ، ولد بوادي سوف ، درس بالكتاب والمدارس الابتدائية ، ثم واصل تعلمه بقسنطينة ، عمل وكيلاً شرعياً ، وأنشأ جريدة (الدفاع) بالفرنسية وساهم في صحف وطنية متعددة . اغتيل على يد المستعمرين في أكتوبر 1952 بالجزائر العاصمة

(2) البريد .

(3) أخضع الاستعمار الفرنسي بعض مناطق جنوب تونس وجنوب الجزائر للأحكام العسكرية . وكانت هذه المناطق تسمى بمناطق الحكم العسكري إذ يتولى إدارتها حكام من العسكر .

مكي أحمد وهو من جلة الشيوخ الذين جمعوا بين العلم والتقوى ، والشيخ العفيف السيد بن حوحو والأديب الفاضل السيد الخرشي بن الشباح والشيخ العفيف السيد محمد بن منصور إمام مسجد سيدي عقبة رضي الله عنه .

سيدي عقبة من أكابر العلماء والمجاهدين ، وكان مقتله بهذا البلد المسمى باسمه : هو الذي اختط مدينة القيروان الصحابية ، وفاتح المغربين الأوسط والأقصى ، وضريحه بهذا البلد مشهور يتبرك به المسلمون ويقصدونه بالزيارة من أقصى الجهات ، وقد زرنا ضريحه وتبركنا به ، وله مسجد ملاصق في غاية الإحكام والاتساع والنظافة ، وقد وسع في نطاقه أخيراً ، والمسجد عندما يدخله الزائر ينشرح له صدره من البهرجة والترتيب .

ولسيدي عقبة من الكرامات والمناقب ما يفوق الحصر ، ربما ترجمنا عنه بانفراده في غير هذه الرحلة رضي الله عنه . ومن الفضلاء الذين اجتمعنا بهم الأديب الأكتب السيد أحمد بن العابد وقد كلفناه بمكاتبتنا[1] فقبل بهذه المهمة جازاه خيراً . وبلد سيدي عقبة قليلة المياه غير أنها على عدد وافر من النخيل كالدقلة وغيرها .

ترجمة عقبة بن نافع:

هو عقبة بن نافع بن عبد قيس القرشي الفهري ، ولد رضي الله عنه أوائل الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، ولذلك عدّ صحابي المولد ، ولما كبر حفظ القرآن الكريم ، ثم اشتغل بالعلوم الدينية والعربية حتى برع فيها غاية البراعة وصار من أساطين العلماء المشهود لهم بالتقدم والاعتبار ، فأهلته علومه الغزيرة ، وأفكاره الثاقبة ، ونظرياته السياسية والحربية إلى تولي إمارة إفريقية من طرف الخليفة معاوية بن أبي سفيان بن حرب ، فتوجه إليها في سنة 50ه وذلك بعد أن افتتحها عبد الله ابن أبي سرح بواسطة جيش من الصحابة والتابعين يناهز العشرين

---

(1) يعني أن يصبح مراسلاً لجريدة العصر الجديد والواضح أن السيد أحمد حسين المهيري وقد قصد في رحلته التعريف بجريدته ، وتكوين شبكة من مراسليها ، ومن الكتاب . إذ من المعلوم أن الصحف التونسية كانت كثيرة الرواج في شرق الجزائر وجنوبها .

ألفاً بأمر الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 27، بعد أن قطع الجيش الإسلامي مفاوز طرابلس الغرب، وأناخ على سبيطلة عاصمة القطر التونسي على عهد الحكومة القرطاجنية البيزنطية في القديم.

وتعرف هذه الغزوة بغزوة العبادلة السبعة لأنها ضمت سبعة من أعيان الصحابة كل واحد منهم يدعى عبد الله وهم: عبد الله ابن سعد بن سرح قائد الجيش وأحد كتاب وحي النبي ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص السهمي رضي الله عنهم.

وبعد غزو إفريقية استشهد عثمان رضي الله عنه، وولي مكانه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، غير أنه لم يكد يباشر أمر الخلافة حتى وقع خلاف بينه وبين معاوية ابن أبي سفيان، الذي طلب الخلافة لنفسه إلى أن استشهد الإمام علي سنة 40 وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة طوعاً إلى معاوية الذي نقل مقر الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق الشام.

ولما استقر له الأمر سير جيشاً إلى إفريقية تحت قيادة معاوية بن حديج الكندي سنة 45، فافتتح «الجم»[1] و«سوسة»[2] و«جلولا»[3] و«بنزرت»[4]. وفي هذه الواقعة استشهد الصحابي الكبير «أبو زمعة البلوي». ودفن قريباً من «القيروان» حيث ضريحه الآن رضي الله عنه.

ثم رجع معاوية بن حديج إلى مصر، فورد مكانه عقبة بن نافع الفهري صاحب الترجمة أميراً على إفريقية سنة 50، وأول ما شرع فيه تأسيس مدينة إسلامية دعاها القيروان في السنة المذكورة، وبنى بها الجامع الكبير المعروف باسمه ولا زال موجوداً إلى الآن. ثم خرج بعد ذلك في جيش كبير قاصداً افتتاح الغرب من أدناه إلى

---

(1) مدينة تقع على سواحل الجمهورية التونسية.

(2) نفس التعليق.

(3) نفس التعليق.

(4) نفس التعليق.

أقصاه فافتتحه ، ولم يمنعه من توسعة الفتوحات إلا المحيط الاطلانطيكي .

فلما انتهى إلى ساحله وقابله البحر أقحم -أي أدخل- فيه فرسه إلى أن بلغ الماء إلى ركابه فرفع سيفه ويديه إلى السماء ونادى بأعلى صوته اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود . ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من يشرك بك حتى لا يعبد أحد من دونك ، ثم قفل راجعاً إلى القيروان ، غير أنه لما كان بأرض الزاب -تعريف قديم للقسم الجنوبي من عمالة قسنطينة وقاعدته «بسكرة»- تقدمته جيوشه ، ولم يبق معه إلا نفر قليل من جملتهم «كسيلة» الزعيم البربري الذي كان أسيراً عند عقبة فاغتنم كسيلة تلك الفرصة وأعلم قومه بقلة المسلمين ، فهجم البربر فجأة على عقبة وأصحابه ، وكانوا نحو الثلاثمائة فقاتلوا قتال الأبطال ، وتكاثر عليهم العدو فاستشهدوا جميعاً في مصرع واحد سنة 69 .

قال ولي الدين ابن خلدون : وأجداث أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد ، وقد جعل على قبر عقبة أسنمة ، ثم جُصِّص واتخذ عليه مسجد يعرف باسمه . وهو في عداد المزارات ، ومظان البركة ، بل هو أشرف مزار من الأجداث في بقاع تلك الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء ، من الصحابة والتابعين ، الذين لا يبلغ أحد من أحدهم ولا نصيفه .

والمكان الذي أشار إليه ابن خلدون صار الآن مدينة تعرف سيدي عقبة وهو عبارة عن واحة صغيرة بالقرب من بسكرة في الجنوب من ولاية قسنطينة . ولا ريب في أن ضريح ذلك الصحابي الشهير من أشرف المزارات في بقاع إفريقية وأبركها لاحتوائه على جسد ذلك الصحابي الشهيد الذي وضع أول حجر إسلامي بالمغرب ، حيث أسس مدينة القيروان وجامعها الأعظم ، فالله يجازيه عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء ، ويسكب على جدثه سحائب الرحمة والرضوان .

ومن محاسن كلامه ما أوصى به أبناءه بالقيروان لما عزم على فتح المغرب . فقال : «يا بني ، إني بعت نفسي إلى الله ، ولا أدري ما يقضي علي في سفري . يا بني إني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ، ولا تضيّعوها : املؤوا صدوركم من كتاب الله ، وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ويدلّكم على مكارم الأخلاق . وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العَبَاءَ (أي إحرام الصوف) ، فإنّ الدين ذلٌ بالنهار

وهمّ بالليل ، فدعوه تسْلم لكم أقداركم وأعراضكم . ولا تأخذوا إلا من أهل الورع فإنه أسلم لكم . ولا تقبلوا العلم من المغروبين (كمن يدّعون الوطنية كذباً) فيفرقوا بينكم وبين الله . ومن احتاط سلم ونجا» .

والخلاصة أن عقبة من أكابر الصحابة والعلماء العاملين ، ومن مشاهير القواد الحربيين ، وأساطين السياسة المحنكين ، فأفاد بمواهبه الراقية الإسلام والمسلمين ونشر الدعوة الإسلامية متجشماً في سبيلها كل العقبات والكوارث إلى أن لقي الله وهو عنه راض . رضي الله عنه ، ونفعنا بعلومه وأسراره .

«العصر الجديد»[1]

---

(1) 28 أكتوبر/ 4 - 11 - 18 - 25 نوفمبر/ 23 - 30 ديسمبر 1922 ، و13 - 20 جانفي ، 10 فيفري 1923 .

(الرحلة الثالثة)

شهران في عمالة قسنطينة
1927-1928

سعيد أبو بكر

شهران في عمالة قسنطينة

اطلع القراء بدون شك على الأسطر القليلة التي كتبها الأخ صاحب «لسان الشعب»[1] تحت العنوان أعلاه ، والتي قال فيها إنه سينشرها ابتداء من عدده هذا .

يقول صاحب اللسان إنها رحلة وليس من العدل أن أسميها رحلة لأنني في الحقيقة لم أتمكن من زيارة عدة جهات ، عاقني عنها إما ضيق الوقت وكونها في المناطق العسكرية ، ويجب حينئذ أخذ رخصة خصوصية قبل الذهاب إليها ، وإلا فإن «القائد»[2] مأمور بتأكيد وشدة توجيهه مكتفياً مع ما معه من الأوراق إلى من له النظر . ولذلك فقد اقتصرت على زيارة بعض بلدان الشمال ثم توجهت نحو الجنوب ، ولم أتجاوز فيه بسكرة بلدة النخيل الجميلة التي هي نهاية الحكم المدني .

وهاأنا أحدث قراء لسان الشعب [3] الأفاضل على بعض ما شاهدته هناك ، أو في الحقيقة أعيد على جميعهم ما ذكرته إلى بعضهم ممن اجتمعوا بي شفاهياً فطلبوا مني نشره : «طالما كنت أسمع الناس يتكلمون على بلدان الجزائر ، ويذكرون أنها آيلة إلى التفرنس[4] لا محالة ، وبعضهم يعمّم ، والبعض الآخر يخصص ويحتج ببقاء مدينة قسنطينة على حالها ، ولقد أصبحت من زمان بعيد أحمل بين جنبي قلباً يحب هاته المدينة التي حافظت على مدنيّتها العربية وقاومت تيار التفرنس . وكنت أترصد الفرص لزيارتها والاطلاع عليها ، إلى أن وجدت نفسي في أول الشهر المنصرم في بلاد «غار الديماو»[5] التونسية والتي هي آخر نقطة في بلادنا مما يلي جارتنا العزيزة الجزائر .

(1) هو الصحفي التونسي البشير الخنقي (1884 - 1977) .

(2) خطة وظيفية في العهد الاستعماري تقابلها خطة الوالي والحانظ في النظم الإدارية في الدولة الفرنسية .

(3) صدرت بتونس سنة 1920 .

(4) بمعنى أن تصبح فرنسية بفعل الاستعمار الذي كان يركز على طمس الهوية العربية للشعب الجزائري ، وإحلال الفرنسية محلها .

(5) يقصد غار الدماء وهي مدينة تقع بالشمال الغربي للجمهورية التونسية متاخمة للحدود الجزائية ويلفظها النار غار الدماو تخفيفاً ودروجاً على العادة .

هناك حدثتني نفسي بالتمادي على السفر إلى الشقيقة ، وصحّت عزيمتي على الذهاب إلى قسنطينة قبل كل شيء ، وبادرت بأخذ تذكرة إليها وسلمت حقيبتي إلى «الديوانة» [1] لتفحصها طبق القوانين . ومن هناك توجهت نحو الرتل الجزائري وأخذت موضعاً لي في إحدى عرباته . وبمجرد وصولي إلى هاته العربة بدأت أشعر بتغير محسوس في كل شيء . ويكفي أن أقول لكم إن كلمة وكل سطر وكل إعلان مكتوب باللغة الفرنسية له بجانبه أو أسفله ترجمة حرفية باللغة العربية ، بنفس النظام المعمول به بلغة الفرنسيين وبخط كنت أتمنى أن أرى ما دونه بالبلاد التونسية .

أما النظافة والنظام فذلك ما أرى من الأنسب أن أسكت عليه ، خشية أن تقول الشركة الحديدية التونسية أنني استهزئ بها .

شرع الرتل في المسير ، وبعد عشرين دقيقة على الأكثر كنا في التراب الجزائري ، وليس هناك أدنى علامة تفرق بينه وبين ترابنا ، وليس من السهل على الإنسان أن يدرك الحد الفاصل لو لم يكن معه مرشد . وليس من الإنصاف عندي أن يكون هناك شيء يسمى بالبلاد التونسية وأخر يطلق عليه اسم البلاد الجزائرية . وهما في الحقيقة شيء واحد .

وصلنا لأول محطة في القطر الجزائري : سيدي الهميسي ، وهي تبعد على التراب التونسي بعشرة كيلومتر بالضبط . غير أن الحياة فيها على ما يظهر من أكثر من سبعين نفراً ركبوا منها بعيدة عن حياتنا كثيراً ، ولو أنها قريبة جداً من حياة بعض السكان في بعض الجهات التونسية في الحد الغربي كجبال «غار الديماو» وقبائل «ورغة» ، ولا يفصلهم عن بعضهم إلا لباس الرأس .

بقي الرتل يطوي الأرض طياً وأنا أطل من نافذتي على ما وهبه الله لشقيقتنا من الأراضي الخصبة ، والتراب الصالح ، وعلى ما يحيط بذلك كله من الجبال الشاهقة التي يظهر أنها كانت حجرة كؤوداً في سبيل مد الخط الحديدي الجزائري ، ولكن اليد الإنسانية القوية عبثت بها أخيراً فسلمت نفسها إلى الإنسان ينحتها كما تشاء أو

---

(1) يقصد الجمارك .

يعمل في قلبها ما يريد . فكنا لا نكاد نخرج من نقب[1] «داموس» إلا لكي ندخل في نقب آخر . وكنّا في بعض الأنقاب نكاد نختنق بالدخان الذي يدخل من بعض النوافذ لطول الحصة التي نقضيها تحت الجبال رغماً عن سرعة السير .

وصلنا إلى محطات أخرى كنت أبصر فيها من الركاب أننا ذاهبون نحو الرفاهية والحياة الحسنة شيئاً فشيئاً ، وما كدنا نصل إلى سوق أهراس حتى خيل لي أننا في محطة من البلاد التونسية . ومن هناك تبددت تلك الصورة التي انطبعت على مخيلتي في سيدي هميسي ، وأخذت أدرك أننا شعب واحد خُلقُنا واحدة ، وعوائدنا واحدة ، إلا أشياء ثانوية هي أصغر من أن تعد وتحسب .

أما الشيء الذي ألفت نظري من المحطة الأولى فهو اللسان الفرنساوي ، بحيث إن أكثر المحادثات التي كنت أسمعها في العربة إن لم أقل كلها كانت بهذا اللسان ، لا فرق في المتكلمين بها بين الصغير والكبير ، ولا بين حسن الزي ورديئه . فهم كلهم يتكلمون الفرنساوية بسهولة ، وكأنهم أدركوا أنني أحسنها أيضاً ، فكانوا يجيبونني عن أسئلتي بها رغماً عن كوني أسألهم باللغة العربية . وسأتكلم عن هاته الجزئية بإطناب في موضع آخر . وإنما أذكر هنا ، ما دمنا في الطريق ، أني كنت في عربة واحدة مع جماعة كانوا يحملون دفوفاً ركبوا في محطة لا أتذكرها ، وقد أرادوا أن «يضربوا نوبه»[2] ففعلوا .

وكان بجانبي رجل فرنساوي من «نابل»[3] عرفته في الطريق ، لم يرق له صوتهم ولا ترنيمتهم التي هي ليست كجماعات بلده من غير شك ، فمال إليّ وأراد أن يلاحظ لي ما في ضميره ، وعلى وجهه علامات التأفف والانقباض . وكأن القوم أدركوا عليه فالتفت إليه واحد منهم كنت أظن أنه لم تبلغه دعوة وجود فرنسا في الجزائر وأخذ يخاطبه باللغة الفرنساوية ، ويتهكم عليه بصورة أدهشتني وأدهشت الرجل الفرنساوي الذي لم يسعه إلا أن يعتذر إليه .

---

(1) نفق .

(2) تطلق كلمة نوبة على الألحان التي تؤديها الفرق الصوفية والشعبية وغيرهما .

(3) إحدى مدن الوطن القبلي بالجمهورية التونسية .

غابت الشمس ونحن لا زلنا في الطريق ، فأنيرت العربات بصورة جعلتنا نختار ضوءها الهادئ على ضوء النهار ، وكان بجانب كل راكب زر صغير يمكنه به أن يزيد النور أو ينقصه ، وبأسفله ورقة من الزنك مكتوب عليها كيفية استعمال الزر باللغتين العربية والفرنساوية .

أخذت ساعتي ونظرت إليها فإذا هي في ساعتها التاسعة بحساب التعديل التونسي ، وهي الساعة الثامنة بحساب التعديل الجزائري ، أرجعتها إلى جيبي وقربت من النافذة فإذا بي أبصر آلافاً من الفوانيس الكهربائية ترسل إلينا أشعتها الضئيلة من بعيد وهي على طبقات كثيرة ، مرتفعة بعضها على بعض بين البناءات المرتفعة التي كانت تلوح إلينا عندما تنعكس عليها أشعة تلك الفوانيس ، فيتكون من مجموع ذلك إلى الرائي منظر جميل يتمنى الإنسان أن لا يحول عنه عينيه : تلك هي مدينة قسطينة . تلك هي المدينة التي كنت أسمع الناس يتحدثون عنها والتي كنت مشتاقاً لزيارتها .

طلع الصباح فخرجت إلى لمدينة وقضيت ما يقرب من ساعتين وأنا أتجول في شوارعها الكبيرة ، وأول شيء لاحظتهُ هو نظافتُها واعتناء المجلس بها اعتناءً زائداً . وقد أدركت بعد يومين أن هذا الاعتناء مسلط حتى على الكثير من الأنهج العربية ، ولعل ذلك يرجع إلى كون الأعضاء البلديين من الجزائريين وقع انتخابهم انتخاباً حراً .

المقاهي الأوروبية كثيرة هناك ، وأكثر منها المقاهي العربية التي لا تزال على النمط القديم ، ولم يدخل إليها أدنَى تغيير ، فترى الناس فيها -أي العربية- جالسين على حصير متسع يلوح عليه أنه مصنوع خصيصاً إليهم وهم عاكفون على لعب «الدومينو» ، وربما لعبوا «الداما» في بعض الأحيان ، أو «النردشير» في بعض الجهات . أما «الكارطة»[1] فلم أرهم يستعملونها إلا في المقاهي الإفرنجية ، وهي نعمة نغبطهم عليها .

لا يكاد يجلس الإنسان في المقهى الأوروبي حتى تحيط به جميع الكلاب التي

(1) الورق .

أبصرته ، وما أكثرها ، فلا يكاد يأتي «القرصون»[1] بما يطلبه حتى تطول أعناق تلك الكلاب إلى الطاولة ولا تغادره إلا إذا منَّ الله عليه بقدوم رجل آخر جلس في مكان آخر ، وقد رأيتهم لا يبخلون على تلك الحيوانات بكل ما يستغنون عليه من السكر فاتخذتها عادة وأقبح بها من عادة .

والقادم على تلك الديار لأول مرة ربما تعجب كثيراً في كل صباح ومساء عندما يبصر أبناء المكاتب[2] ذاهبين إليها أو خارجين منها إلى ديارهم ، ويبصر الألفة التي بينهم ، فإنه يرى المسلم واليهودي والأوروبي إخواناً لا يلوح على وجه أي واحد منهم بعض الحقد على الآخر ، ويتجلى هذا المنظر في كامل مظهره أيام الآحاد والأعياد ، فيندر جداً أن يرى الإنسان جماعةً منهم من جنس واحد يتفسحون في شوارع المدينة أو في خارجها .

على أن الطباع الإسلامية متمكنة هناك في نفوس الأوروبيين الذين يحسنون اللغة العربية ، ويتكلمونها بلهجة الجزائريين عينها . أما المسلمون فإنهم يحسنون الفرنساوية أيضاً ويغضبون إذا أنت تحادثت معهم بها ثم ظهر لك أن تعيد كلامك بالعربية .

أما الشيء الذي يؤسف له عندهم أكثر مما يؤسف عندنا فهو ضياع جانب مهم من الشبيبة في الشوارع والأزقة ، وكثرة اللماعين[3] «الشّيَاتَة» في ساحة باب الوادي ، فلا يكاد الإنسان يصل إلى تلك البقعة حتى يحيطوا به وهم يقولون «نسيريلك»[4] بتشديد اللام أو «تستيرجو» . وكم يكون الأسف شديداً عندما يراهم الإنسان صغاراً في مقتبل العمر وفي زهرة الشباب ، وهم يحملون ذلك الصندوق المشؤوم مع بشرة نقية ووجه صبوح .

وهناك بقسنطينة أيضاً تجار تونسيون يرجع غالبهم إلى جزيرة «جربة» ، لاحظوا لي

---

(1) النادل .

(2) المدارس .

(3) ماسحو الأحذية .

(4) ألمع حذائك .

أنهم يفضلون البقاء هناك على الرجوع إلى بلدانهم ، ولكنهم يتذمّرون من كثرة الأداءات الموظفة عليهم ، مثل غيرهم ، بصفة كونهم من التجار .

ذلك كلُّ ما ألفت نظري من حياة الرجل القسنطيني ، أما المرأة القسنطينية ، وكم كان بودي أن أقول كلمة عنها ، فإني أطلب من القراء أن لا يلحوا علي في محادثتهم عليها ضرورة أني لم أشاهدها كامل المدة التي قضيتها في المدينة . وذلك دليل ، على كل حال ، يمكننا أن نعرف به أنهم يقدسون الحجاب أكثر منا . ولذلك فإنه يصعب علي أن أصفها أو أصف لباسها إلى القراء ، ليتسنى لهم أن يقابلوا بينها وبين المرأة التونسية . على أن الذي رأيته من الفتيات الصغريات بالشوارع شبيه جداً من لباس فتيات «المهدية»[1] ولو أنه أكثر اهتماماً وأقل نظافة .

هذا ما أمكنني أن أحكيه عن مدينة قسنطينة ، ولعله أقل من سُمعتها ، وإذا أردت أن أزيد عليه شيئاً فهو أن أهلها يقدرون تونس ويحترمون التونسي ، وينظرون إليه بعين الاعتبار ، وربما حسبوه أمريكياً فباعوا له الأشياء بأضعاف أثمانها .

والبلاد جميلةٌ بمناظرها الطبيعية المدهشة ، ونظيفة في داخلها لا يشوّه وجهها إلا مكان ملاصق لها من بعض جهاتها ، عثرت عليه أثناء إحدى تجولاتي منفرداً ، وسألت عنه أولاداً وجدتهم هناك فقالوا إنه مكان أطلق عليه اسم «الرمبلي» . وأرى أن لا فائدة في زيادة الكلام على جبالها ووديانها وقناطرها المعلقة لأن ذلك لا يجدي أحداً نفعاً . ولكنني لا أكتم القراء أن غالب أراضيها الصالحة والقريبة منها في أيدي الأجانب ، وقد تسوّغوها من أربابها بُعيد الاحتلال بما لا يزيد عن الخمسة فرنكات للهكتار على مدة تسعة وتسعين عاماً . ذلك كل ما رأيت وسمعت في قسنطينة ، وسأرجع إلى الكلام عليها بعد وصف غالب البلدان التي رأيتها ، وعندما أتكلم على الأمور والعوايد المشتركة التي لا تختص بها بلاد دون أخرى .

قضيت أسبوعاً في مدينة قسنطينة مع شبابها الناهض ، وغادرتها بعده بقصد الذهاب إلى الجنوب لزيارة بسكرة الشهيرة بعلمائها وشعرائها وأدبائها .

لا يكاد الإنسان يصل هاته الجهات حتى يحس بتغيير الحالة دفعة واحدة . ولقد

---

(1) إحدى مدن الساحل التونسي .

مررت بعدد بلدان أشهرها باتنة ، والقنطرة ، ولكن ليس فيها ما يحيكه الإنسان مختصاً بها ، وما هو في الواقع إلا صورة من الحياة التي رأيتها في بسكرة .

وبسكرة هي بلاد جديدة ، تبعد عن بسكرة القديمة بما لا يزيد عن الميلين ، تحيط بها أشجار النخيل وتلال الرمال والجبال ويمر بجانبها وادي سيدي زرزور عند العامة ووادي بسكرة عند طبقة المتنورين . وسمي عند العامة بذلك الاسم لوجود قبة صغيرة بوسطه مدون فيها : سيدي زرزور ، ولهم اعتقاد كبير فيه ليس ببسكرة فقط ولكن حتى في باقي البلدان .

وهناك طبقة عصرية ترمي إلى محق هذه الفكرة وقد بدأت عملها بتغيير ذلك الاسم كما تقدم . يدخل الإنسان إلى بسكرة وقبل أن يمضي عليه يومان يدرك أنه في مدينة القيروان بالبلاد التونسية لولا أن هناك تبايُناً قوياً بينهما في هيأة البناء وفي بعض الأخلاق .

في بسكرة جماعة إصلاحية قوية على رأسها الأستاذ الطيب العقبي [1] وعضداه السيدان الأمين العمودي الوكيل ومحمد العيد [2] أحد متخرجي جامع الزيتونة وأهم ما ترمي إليه هاته الجمعية القضاء على الخرافات القديمة ، والتنقيص مما يعمله الناس عن الطرق والزوايا للقضاء عليها بعد ذلك بتاتاً . وهو أمر تعهد به العُقبي الذي لا يترك فرصة تمر بدون أن يكون فيها خطيباً لا فرق عنده أكان ذلك في طريق ، أو مقهى ، أو حانوت عطار . وقد حضرت عليه ، أي العقبي ، يتباحث مع أناس في هذا الموضوع ، كان في إمكانه إقناعهم لو لم يقرن حديثَه الصحيحَ ببعض التهكم الذي جعل محادثيه يصرّون على أفكارهم ، عناداً ، رغماً عن كونهم يظهر عليهم أنهم أدركوا الحقيقة .

---

(1) الطيب العقبي (1880 - 1960) ولد ببلدة سيدي عقبة ثم هاجرت أسرتهم الجزائر إلى الحجاز حيث تلقى تعلمه قبل أن يعود إلى الجزائر في سنة 1920 فيسهم في الحركة الإصلاحية ويصدر جريدته (الإصلاح) في سنة 1927 .

(2) محمد العيد (1904 - 1979) شاعر الجزائر الأكبر . ولد بالعين البيضاء ، ودرس بالزيتونة ، وساهم في الكتابة بعدد من الصحف التونسية وصحف جمعية العلماء .

وقد اشتهر الأستاذ بفكرته ، وهو فخور بها يسمع الناس يسبونه ولا يتحرك ، ويأتيه البريد بالمكاتيب[1] المملوءة بشتمه فيضحك منها ويعطيها لمن كان بجانبه ويقول : «انظر في أي شيء يضيعون أوقاتهم» . وله في طريق داره ضريح صغير في مقبرة قديمة رأى الناس «يعبدونه» فهدمه ثلاث مرات ، ولكنهم في كل مرة يجددون بناءه بعد أن يزودوا الأستاذ بجانب من الدعاء ، وأخيراً تركوه وصمموا على عدم تجديده إلا إذا انتقم لنفسه من عدوّه . . . وهم منتظرون . ولقد التف حول هذا الرجل المصلح نخبةٌ مهمة من أبناء البلاد كونوا نهضة لا يستهان بها ، وهي تعمل بكل مجهودها في إنارة الطريق إلى تلك الأفكار القديمة التي استولت عليها وأفسدتْها من حيث لا تشعر .

وإذا جرنا الكلام إلى الطرق فلا بأس بكلمة في الموضوع توقف القارئ على هذا المنظر : «لم أر نفوذاً كنفوذ أصحاب الطرق في هذه الجهات ، ولم أر طاعة عمياء كطاعة المريدين إلى المشايخ .»

والناس هناك يتنافسون في الهدايا التي يزورون بها أولئك المشايخ ولا يقدمون إليهم إلا بعد أن يختاروا له من الشيء أحسنه ، ولا يبالون أن يبقوا بعد ذلك في ضيق وخصاصة ، وهاته الصورة جعلت المشايخ أغنياء والسواد الأعظم في فقر مدقع! وأعظم دليل على ذلك ما سمعت الناس يرددونه عن أحد المقدمين إثر موته أنه خلف ما يزيد عن عشرة ملايين فرنكاً مودعة في البنوك .

وكل أصحاب طريقة يطلقون على الواحد من أي طريقة أخرى اسم «قرميط» والجماعة «قرامطة» ، ولا يكاد القرميط يرميه القضاء والقدر وسوءُ طالعه بين جماعة من طريقة واحدة حتى يصبح محلَّ سخريتهم منه واستهزائهم عليه . والذي يزيد الطين بلة هو تعدد الطرق وبث كل مقدم في عقول تلامذته بغْض الآخرين والحقدَ عليهم .

حتى أن جماعة إذا سمعوا بقرميط سبَّهُم أو انتقد طريقتهم اشتكوا به إلى شيخهم ، وهذا يأمرهم بأن يجتمعوا ليلةَ الجمعة ويحسبوا ألفَ لعنة ، أو ألفين ، أو

---

(1) الرسائل .

ثلاثة آلاف على حساب الجريمة . وهناك شيء واحد يتفقون عليه ، ويا ليتهم لم يتفقوا ، وهو قيامهم جميعاً ضد «بنو مزاب»[1] قياماً دلّ على جهل وتعصّب ممقوت .

والويل لمن أنكر عليهم أعمالهم ، فإنهم لا يبخلون عليه بنعوت الجهل والقصور والذبذبة . على أن جماعة الإصلاح ساعون بكل قواهم في تبديد سُحب هذه الفكرة وهم مبدّدوها لا محالة .

الأدباء في بسكرة كثيرون . واللغة العربية هناك منتشرة انتشاراً حسناً ، وكلهم يكتبها ويقرؤها ويتكلم بها . تجلس عند التاجر فيتكلم معك في الأدب . وتزور حانوت الحفّاف -الحلاق- فيبدؤك بالحديث عن الأدباء ، وتذهب إلى المقهى فتسمع المحاورات الأدبية في بعض الأحيان .

والجرائد التونسية موجودة فيها بكثرة . وزيادة على المشتركين فإني كنت أراها معروضة للبيع في غالب بقاعها بما جعلني أحسب نفسي في تونس «بباب السويقة» أو «بالحلفاوين»[2] .

وشعراؤها أيضاً كثيرون ، وكم تلّذ فيها الحياة إلى الشاعر ، يصيغون الشعر الفحل في المواضيع المختلفة . وقد تخصص فيهم بالشعر الفكاهي وأجاد السيد الأمين العمودي ، ولا أرى في تقديمه إلى القراء أحسن من أن أضع أمامهم بعض قصيدة فكاهية أتأسف لكونها لا يجوز لي نشرها :

وبّخت عاقلهم يوماً فجاوبني وكان يعشق بعض «المدموازيل»[3] :

أأقتدي بالذي تبدي ، وأرغب عن
عُود يرنّ وحسناء «تسربي»[4] لي؟

---

(1) بنو مزاب : هم سكان إحدى مناطق جنوب الجزائر ، ومعظمهم من المنتسبين للمذهب الأباضي ، وقد اشتهروا بالاستقامة والصلاح وسداد العقيدة .

(2) حيان شعبيان من أحياء تونس العاصمة .

(3) تعني الأوانس .

(4) تسقيني .

عـفـيـفـة لم تزل أصـلا بكارتهـا
تجـر ذيلا وتمشي «بالتُّـرنكيل»[1]؟

والمقاهي العربية في بسكرة كادت تكون مثلها في قسنطينة لولا وجود واحدة عربية فتحت حديثاً، وقالوا إنهم يريدون أن يطلقوا عليها اسم قهوة الشباب الناهض، وهي واقعة بموضع من الجمال لا عيب فيه إلا أنه قريب جداً من حارات النساء العموميات. ويكثر هناك وجود الناس الذين لا يجتمعون بهاته المقاهي إلا سعياً وراء فرصة تمكنهم من لعب «الكارطة» مع أصحابهم، وغير أن الذي يجب أن يلاحظ هنا هو أن الصغار لا يشتغلون بها، ويظهر أن الكبار أيضاً لا يميلون إليها إلا قتلاً للوقت، ولم أرهم يلعبون إلا «الروندة»[2] التي كنت أسمع بعضهم يفتخرون بالنبوغ فيها.

أتذكر بهذه المناسبة أنني ذهبت في يومي الأول صحبة أحد الأصدقاء إلى ملاقاة الأستاذ العمومي فوجدناه منكباً على طَرْح روندة، ولما ذهب إليه الصديق وأعلمه بقدومي صاح بقوله: «عجيباً»!، وبعد أن أكمل طرحه جاء يركض نحونا ركضاً. وقد عدرناه جميعاً لأنهم عرّفوني بأنه من فرسان الرُّوندة. وأتذكر أيضاً أني لعبت معه في مجلس خاص ولكنه غلبني، ولا أدري أن ذلك من حسن حظه أو من سوء حظي.

هناك بالقرب من «قهوة الشباب» وفي وسط ساحة كبرى يرى الإنسان تمثالاً عظيماً، ولا يكاد يدنو منه حتى يعرف أنه تمثال الكادرينال «لا فيجري»[3] حاملاً بإحدى يديه الكتاب المقدس وبالأخرى صليباً كبيراً، ومكتوب على الرخامة التي وضع عليها هذه الكلمات باللغة الفرنسوية: «الجزائر إلى لافيجري». وربما كان معناه أن الفضل في فتحها إليه. وهو ملتفت إلى المستشفى الذي كان أسسه في بسكرة والذي يبعد عن البلاد بميل واحد تقريباً. ولقد زرته ولم أدخل إليه، ورأيت بأعلى الباب الذي يدخل منه كلمتين باللغة العربية والخط الثلثي الجميل، وهما: «بيت

---

(1) بهدوء.

(2) لعبة من ألعاب الورق.

(3) أحد أقطاب الاستعمار الفرنسي ممن كان لهم دور كبير في التبشير والتنصير في شمال إفريقيا.

الله» ، وقد أعلمني بعض الشيوخ نقلاً عن والده أنه ، أي الكردينال ، أول من دخل تلك الأرض من الفرنسيين ، وأسس ذلك المستشفى وكانوا في أول الأمر يرمونه بالحجر ، ولكنه كان يقابل أعمالهم ببذل النقود إليهم ، وكان يكرمهم إلى أن امتلك قلوبهم وأصبحوا يحبونه ويكادون يعبدونه .

أما الحياة الفلاحية فهي تكاد تنحصر في التمر بجميع أنواعه ، ولاسيما النوع الذي يعبرون عنه بدقلة نور ، ونوع آخر نسيت اسمه ، ولعله اليتيمة ، ولا فائدة في أن أزيد عند التكلم عليه عن قولي أني لم أره إلا في تلك الجهات ، ويندر جداً أن يجد الآكل النَّواة في وسط التَّمرة . وهم زيادة على ذلك يكثر عددهم وجود نوع من «اللَّيم»[1] يطلقون عليه اسم التشينة ، وهو أقرب ما يقرب في طعمه إلى نوع الليم التونسي يسمى في الساحل «لسان عصفور» .

هذا ولعل ذلك ما يمكن أن يقال عن بسكرة ، وإذا بقي شيء فهو أنها بلاد جميلة يؤمها السواح من جميع بلدان العالم ، وأحسن أيامها في آخر الخريف وأول الشتاء . ولذلك فإن الخانات فيها كثيرة وأسعارها تتراوح بين اثنى عشر فرنكاً وخمسين فرنكاً وبها عدة بساتين عمومية تتخلل بعضها المياه الجارية على طول السنين والتي تتفرق بعد ذلك لتسقي الأملاك الخصوصية .

ويلذ فيها ، أي بسكرة ، المقام إلى كل من زارها . على أنني كان بودي أن أمكث بها كثيراً لو لم أر أعيانها وفضلاءها يتكلفون معي كثيراً ، وأحبابي كلهم يعرفون أن الكلفة أبغض شيء عندي ، ويظهر أن الحكومة تسعى جهدها في جلب الناس إليها من كل جانب ، حتى أنها أخذت منذ أعوام تُقيم بها ملعباً هائلاً وتدعو الناس للحضور به ، وتسعفهم بخفض خمسين في المائة من أسعار ركوبهم على القطار .

قضيت في هذه البلدة الجميلة أسبوعاً كاملاً ، وخرجت منها وأنا آسف كل الأسف لعدم تلبية دعوة الصديق مكي إسماعيل ، الذي طلب مني زيارته بسيدي عقبة لأنزل ضيفاً عنده وعند والده قاضي البلاد ، ولم يكن امتناعي إلا لأنهم يسكنون في تراب الحكم العسكري . وربما عدتُ وذهبت إلى هذه البلاد وحدثت

---

(1) صنف من أصناف الحمضيات .

القراء عنها في فرصة أخرى .

خرجت من بسكرة إلى المحطة مصحوباً بأولئك الأفاضل الذين أبوا إلا أن يودعونني في آخر لحظة أفارقهم فيها ، وعلى الساعة الثالثة إلا دقيقتيْن أقلع القطار وغادرت تلك الربوع الجميلة وتلك النفوس الكريمة قاصداً مدينة قسنطينة التي وصلنا إليها على الساعة العاشرة وتسعة وثلاثين دقيقة ، وفيها قضيت ليلتي في خان لم أخرج منه إلا في الغد الذي قضيتُه أيضاً في المدينة وغادرتها في المساء قاصداً «وادي الزناتي» .

دخلت إلى هذه البلاد ليلاً وقد رأيت بمجرد نزولي إلى محطتها أن الشباب هناك لا حرفة له ، وليس للأولاد الصغار من الأعمال إلا انتظار الأرتال ، والترقب إلى المسافرين ليحملوا لهم أدباشهم . وقد كادوا يصلون إلى ما لا تحمد عقباه عندما طلبت واحداً منهم يحمل لي حقيبتي الصغيرة ، حيث أن كلاً منهم زعم أنه هو البادي أو المطلوب وافتكوا من يدي الحقيبة ثم أخذ قويّهم يفكها إلى ضعيفهم ، ولا أدري ماذا كانت تكون النتيجة لو لم أكن استرجعتها منهم وحملتُها بنفسي . وقد دلتني الليلة الواحدة التي قضيتها بوادي الزناتي أن هذه البلدة لا أهمية لها حتى أن القادم عليها لا يجد محلاً حسناً يقضي فيه نوماً هنيئاً .

ولم يشأ القضاء أن لا يجعلني أبيت في خان أهم ما فيه حانته التي كنت أراها ملأى بالمسلمين وهم يتناولون الخمر جماعات ، ومن العجيب أنني جلست على منضدة وحدي وطلبت قهوة فلم أجدها رغماً عن كوني كنت أرى آلات طبخها ، ورغماً عن كون الليلة كانت باردة جداً . وقد توهمت أن قضاء هذه الليلة سيكون وخيماً وبقيت إلى ساعة مؤخرة بهاته الغاية ولكن فسد ظني وخرج الناس كلهم بدون أن يحملهم السُكْر إلى عمل ما يراه التونسيون كلهم عقب كل مجلس من هذا القبيل .

ذهبت في صباح الغد إلى النادي العربي الفرنساوي صحبة إمام الجامع ، واجتمعنا هناك بالشيخ القاضي الذي هو رئيس النادي ، وأتذكر ، ونحن جلوس ، أن المكلف بإحضار القهوة للقادمين قرُب من القاضي وهمس في أذنه بعض كلمات لم أسمعها ، ولم يكن من حقي أن أسعى في سماعها . غير أنني رأيتُ الشيخ على أثر

ذلك قام وعصاه في يده وتوجه إلى ناحية من النادي ومنع جماعة عن لعب «الدومينو» ، وقد علمت بعد ذلك أن القهواجي اشتكى بهم إلى الرئيس لأنه عاينهم يقامرون . على أن تلك الجماعات أذعنت إلى إرادة القاضي بكل طيب خاطر ، ولم تظهر على أي واحد منهم أدنى معارضة . على أن ما شاهدته بوادي الزناتي قد جعلني أعتقد أن الجزائريين لا يحترمون إلا رجلين : هما القاضي والإمام ، وذلك كله ما جعلني أنقم على أولئك الذين نراهم عندنا ينسبون إلى هذين الرجلين بصفة عمومية بعض حكايات لا نصيب لها من الصحة .

قضينا مدة طويلة بالنادي ثم فارقت الجماعة بنية الذهاب إلى الخان لآخذ حقيبتي . وقد رأيت أن الوقت لا يزال متسعاً فأخذني أتجول ببعض الجهات منفرداً وحدي إلى أن وصلت إلى «الجامع الأعظم» ، هناك دخلته فإذا هو مثل جوامع قسنطينة ، على غاية من النظافة والاعتناء ، غالبه مفروش بالزرابي الرفيعة ، ويحيط بمحرابه ومنبره كثير من الفوانيس الكهربائية التي تستعمل في أيام السحاب الذي لا يمكن معه للإمام أن يقوم بتلاوة خطبة الجمعة . وقد ألفت نظري إطار معلق يمين المحراب ، دنوت منه وبعد قراءة ما به علمت السر في احترام الجوامع ، وإذا أردت أن أحلل هذه النظرية للقراء فلا أرى أحسن من كوني أضع أمام أعينهم نسخة حرفية مما هو مكتوب في ذلك الإطار المحرر بصفة رسمية ، والممضي من إمام الجامع ومن شيخ المدينة والى القراء ما جاء فيه :

- الفصل الأول : يجب على كل قيّم في مسجده أن يصونه من غير الصلاة وما يلزم لها مما جعلت له المساجد شرعاً . فلا ينام فيه أحد أياً كان سوى قيّمه ، ولا يجتمع فيه لغير الصلاة إلا لقراءة القرآن ، أو درس من إمامه مثلاً ، أو لعقد نكاح مع احترامه احتراماً كلياً .

- الفصل الثاني : يجب على القيم إزالة ما يطرأ من الغبار والعناكب داخلاً ، وتنظيف ساحته خارجاً ، كمحل الوضوء وبيت الخلاء بصب الماء الكثير لقطع الرائحة يومياً .

- الفصل الثالث : تفتح الميضات ساعة قبل الوقت للمصلّي ، وتغلق بعد الفراغ من الصلاة بنصف ساعة ، ما عدا وقت المغرب فلا تغلق إلا بعد صلاة العشاء

بنصف ساعة ، لشدة الوقتين ، وعلى هذا فمن تأخر من المصلين فلا تفتح له قطعاً للهرج والعناد ولومه على نفسه

- الفصل الرابع : يجب على القيّم أن يغلق باب المسجد وأبوابه بعد الفراغ من صلاة الجمعة بنصف ساعة ، في غير صلاة المغرب فلا تغلق بعده كما تقدم في الميضات .

- الفصل الخامس : يجب على القيم أن لا يفرط في الماء بحيث يتركه جارياً لغير فائدة ، أو في يد غيره من الداخلين للمسجد . وإن وقعت مخالفة على ذلك من الدولة فعلى القيم .

- الفصل السادس : يجب على القيم حفظ المسجد من حضور الصبيان من احترام المصلين .

- الفصل السابع : الخطيب يوم الجمعة يفتح له ضوء المنبر إن احتاج له .

- الفصل الثامن : القيم هو المكلف بهذا تحت نظر إمام المسجد وتفقده حتى لا يقع من تفريط .

وكنت في 29 سبتمبر 1923 وفي 17 صفر عام 1342 وبآخره إمضاء الخطيب في وقته وبجانبه إمضاء وطابع شيخ المدينة . هذه نسخة حرفية من ذلك القانون ولا أدري هل أن وجود إمضاء «المير»[1] فيه هو مجرد إعطاء أهمية إليه أم هو تداخل الحكومة حتى في أمور الدين .

خرجت من بيت الصلاة صحبة الرجل الوحيد الذي وجدته فيها مشتغلاً بحفظ متن من مجموع المتون بقصد الاطلاع على الميضة . وبالوصول إيها ظهر أنها مقسومة إلى ثلاثة أقسام أحدها بيوت الراحة والثاني بيت الوضوء ، والثالث بيت الاغتسال . وعلى باب هذا البيت رأيت كتابة بالخط العريض هذه نسخة منها : «هذا المحل معد للغسل من الجنابة لا غير ، ومن يفعل شيئاً غير المذكور فالله حسيبه ولو اطلع عليه ينتقم منه حسب الطاقة» .

وبعد أن أخذت نسخة مما تقدم صافحت صاحبي ، وبعد ساعة كنت بالمحطة أنتظر

---

1) رئيس البلدية Le Maire .

القطار القادم من قسنطينة لأتوجه إلى «قالمة» التي لا تبعد عن هذه البلدة إلا بمسافة قليلة .

خرج القطار من وادي الزناتي على الساعة العاشرة وأربعين دقيقة على حساب التعديل[1] الجزائري ، وبعد الزوال بثلاثين دقيقة كنا على أبواب قالمة .

تبعد هذه المدينة على المحطة بميلين تقريباً ، ولذلك فمن الصعب على الإنسان أن يقطع تلك المسافة مشياً على الأقدام ، لا سيما إذا كان يحمل بعض الشيء .

يدخل القادم إلى هذه المدينة فيتراءى له أنه في مدينة إفرنجية أكثر مما هي عربية . فالبناءات شاهقة ومغازات متسعة تصلح لترويض النفس والراحة من متاعب الحياة . ولقد خيل لي وأنا أتجول فيها أنها عبارة على حومة كبيرة ليس فيها إلا المقاهي والمطابخ التي لا تحصى لكثرتها . ولعل ذلك دليل على شهرة هذه المدينة وكثرة القادمين إليها ، ولا سيما في يوم سوقها الأسبوعي الذي صادفته .

وقالمة هي المدينة الثانية التي وجدت بها نادياً أهلياً بعد وادي الزناتي ، ولكن هناك فرقاً شاسعاً بين الناديين كالفرق الظاهر بين البلادين . نادي قالمة عصري بأتم معنى الكلمة وكل ما فيه جديد ونظيف ، وتظهر عليه آثار الاعتناء المتزايد ، تضيئه الكهرباء ، ويديره رجل نظيف على غاية من الأخلاق الكريمة . جلست في هذا النادي الجميل ، وبعد حصة قدم لي ذلك الرجل قهوة أبي أن يأخذ ثمنها مني ذاكراً لي أنه أدرك بأنني لست من العمالة الجزائرية ، وأنه يرى من العيب أن يأخذ ثمن قهوة شربتها في بلادهم .

وقد شكرته لا لأجل هاته العملية ، ولكن لتلك العواطف التي أظهرها لي بالرغم من كونه لا يعرفني ولا يعرف عني شيئاً ، وقد اجتمعت في نفس هذا النادي أيضاً بأنفار كثيرين وجدت في جلوسي وحديثي معهم ارتياحاً . خرجت من النادي بعد ساعة تقريباً وجلست بإحدى المقاهي الأوروبية على طاولة ، بجانب أخرى عليها عائلة أوروبية . وقد شاهدتْ بنتٌ من تلك العائلة أمامي «حكة وقيد»[2] من

---

(1) التوقيت .

(2) علبة كبريت .

«حككنا» التونسية الصغيرة الحمراء فلم تتمالك أن تحادثت مع أمها في شأنها فطلبتها مني لأنها غير موجودة عندهم ، فأخذتها قائلة : «ما ألطفها» ، وقد أدركت أنهم يميلون إلى كل شيء تونسي .

زرت الجامع الأعظم بهاته المدينة ، ولكني لم أتمكن من الدخول إليه لأن الوقت قد كان غير وقت صلاة ، وكانت أبواب المسجد إذّاك مقفلة . تلقّاني رجلان مكلفان هناك بالحديقة التي هي بجانب المسجد وأطلعاني على ما فيها من أشجار رقيقة ، وزهور جميلة وقالا لي إن هذا البستان من توابع الجامع ليكون نزهة للمصلين في زمنَي الربيع والصيف . ولقد شوقاني إلى رؤية داخل بيت الصلاة عندما وصفاها لي ، ولكن حال دونه زيارتها قرب قطار ثالث يخرج من قسنطينة إلى «عنابة» التي عولتُ على المبيت بها تلك الليلة . على أنهما اقترحا علي بلطف متزايد أن يصعدَا بي إلى الصومعة ولكنني امتنعت .

أخرجت هنا ساعتي فإذا بعقربيها على الساعة الخامسة والنصف ، ولم يبق حينئذ إلى وقت وصول القطار غير ساعة إلا قليلاً . وهناك ذهبت إلى أين وضعت الحقيبة فأخذتها وخرجت نحو المحطة على عربة كنت فيها ثالث ثلاثة . وبعد أن وصل القطار وأخذنا موضعنا أدركت أن هذا الرتل أتعس رتل عثرت عليه في حياتي . وأن عرباته أشبه شيء ببيوت السجن حسبما يحكيه المساجين . قضينا في هاته الرحلة التي هي ثمانية وثمانون كيلومترا ما قضينا وقاسينا ما قاسينا . وعلى الساعة العاشرة كان مستخدمو الرتل يشعرون الركاب بوصولهم إلى عنابة .

نزلنا من الرتل ، وخرجنا من المحطة في تلك الساعة المؤخرة من الليل ، وأمامها وجدنا ما يقرب من عشرين عربة تنتظر المسافرين لتحملهم إلى البلاد لأنها تبعد بقليل عن المحطة ولكن المسافة التي تفصلهما كلها بناءات . وقفت بنا العربة بعد حصة في وسط ساحة وجدناها تكاد تكون ملأى من الأولاد الصغار الذين ظهر أنهم ينتظرون تلك العربة ليحملوا أدباش المسافرين ، وذهب من كان معي كلٌّ في سبيل حاله .

أما أنا فقد أخذت أشعر بنوع من الخوف لأنني لا أعرف المدينة ، وخشيت أن يدرك أولئك الأطفال عليّ ذلك ، لاسيما وقد قرأت على وجوههم ما قرأت . ولكنني

تقدمت إليهم وقلت لهم : هل إن بيوت «أوتيل فرنسا» لا تزال حسنة مثل العادة؟ وأظهرت لهم بأنني منذ ما يزيد على العام لم أدخل هاته المدينة . وهناك أجابني أحدهم بقوله : «إنها لا تزال حسنة» . فسلمت إليه عندئذ أدباشي وأخذنا الطريق . وبعد أن مشينا مائة خطوة على الأكثر كنّا أمام باب أوتيل فرنسا .

قضيت ليلتي هناك . وفي الصباح خرجت مبكراً ، وبقيتُ أتجول فيها . وبعد أن اطلعت على غالب حاراتها الأوروبية ، أخذت أبحث عن وطنيّنا السيد عبد الرحمان اليعلاوي[1] الذي نفته الحكومة التونسية إلى هناك إثر الحوادث التي وقعت أثناء إقامة تمثال الكردينال لافيجري بساحة «البورصة»[2] بتونس ، ولكنني لم أجد رجلاً يدلني عليه ، وقد اتضح بعد ذلك أن الاسم المشهور به هو «التونسي» لا «اليعلاوي» ، وهو معروف بذينك الاسم واللقب عبد الرحمان التونسي عند الخاصة والعامة[3]

ذهبت للمحل الذي أُرشدت إليه ، ولما لم أجده ، أبقيت له ورقة زيارة كتبت له فيها أنني أنتظره في محل عينته إليه ، وما هي إلا حصة صغيرة حتى رأيته قادماً نحوي بجبته وعمامته التونسيتين ، وهو يكاد يأكل الأرض أكلاً ، كما يعرفه الناس عندما كان هنا . وبعد السلام والكلام والأسئلة والأجوبة خرجنا إلى المدينة وأخذنا نتجول فيها معاً . وقد شعرت بنفسي في بلاد شرقية وليس فيه من أشياء الشرق إلا القليل .

أما الأمر الذي ألفت نظري كثيراً هو شارع بريطانيا الذي يكاد يكون نسخة مجردة من شارع جول فيري بتونس لو لم ينقصه شيء من الطول . على أن الإنسان يجد هناك من الارتياح والرياضة وحسن المناظر ما لا يجده هنا ، لاسيما وشارع بريطانيا

---

(1) عبد الرحمان اليعلاوي : من أصل جزائري ، انخرط في الرعيل الأول من الحزب الحر الدستوري التونسي . وكان له نشاط سياسي وصحفي بارز ضمن أهداف هذا الحزب الوطني . وبسبب هذا النشاط قامت فرنسا بإبعاده عن تونس إلى الجزائر سنة 1925 بدعوى أنه من أصل جزائري .

(2) أقيم تمثال الكاردينال لافيجري وراء قوس باب بحر الحالي في الساحة المواجهة لنهج جامع الزيتونة حالياً الذي كان يعرف بنهج الكنيسة .

(3) يقصد قبل أن يقع نفيه من طرف السلطة الاستعمارية من تنس إلى الجزائر .

ينتهي بشاطئ البحر أو المرسى على الأصح . أما المغازات التجارية والمقاهي الأوروبية ، فهي لا تزيد ولا تنقص على المغازات والمقاهي بتونس .

وهناك قهوة إفرنجية تعرف باسم «الدوفينوا» تاد تكون نادياً عربياً لكثرة زبائنها المسلمين في جميع الأوقات ، وقد قيل لي أنهم يفضلونها على غيرها لحسن أخلاق صاحبها ولميله الشديد إليهم . وإذا فرضنا أن ذلك «ماعون صنعة»[1] فهو على كل حال قد عرف كيف يأكل الكتف وعرف الباب الذي يجب الدخول منه .

على أن الأمر الذي يؤسف له هو أمر النادي العربي الفرنساوي ، كان هذا النادي في موضع ليس له نظير في البلاد وفي بقعة عامرة كائنة بشارع بريطانيا نفسه ، غير أنه لم يلبث أن لعبت به الأيدي ودخلته الأغراض حتى مات إلى الأبد وأصبح محله الآن قهوة من أحسن وأجمل وأغنى المقاهي .

في مدينة عنابة أو «بون» كما تسمى اليوم في الجغرافيا عند الأوروبيين ، يكاد الإنسان يحس بأن الكتابة والقراءة العربية قد أصبحتا مفقودتين ، ولقد يسهل على البعض من سكانها أن يعبر باللغة الفرنساوية عن مقصوده بصورة يستحيل عليه أداؤها باللغة العربية ، حتى أنني أتذكر أثناء جلوسنا بقهوة الدّفينوا أن رجلاً كان يكلمنا بالعربية ، ولما أدرك تلعثمه طلب مني ومن الشيخ عبد الرحمان التونسي أن يتفاهم معنا باللغة الفرنساوية ، معترفاً بأن ذلك أسهل عليه وأنسب له . وقد كان الصديق عبد الرحمان أثناء جولاتنا يشير إلى عدة أنفار يسميهم لي ويختم كلامه بأنهم لا يحسنون العربية بالمرة . ولولا ما رأيته من اشتغال الآباء بأمر أبنائهم في هذا الجيل ، ومن العناية التي أصبحوا يبذلونها في شأن تعليمهم اللغة العربية لأمكنني أن أقول هذه اللغة هي الآن بهاته المدينة في دور الاحتضار[2] .

على أنني ، ما دمت أتكلم عن العربية ، أرى من العيب أن أنتقل لموضوع آخر قبل

---

(1) وسيلة من وسائل اجتذاب الزبائن .

(2) هذا وصف دقيق لما كان عليه وضع اللغة العربية بالجزائر من البؤس والتدهور ، وتأثير الاستعمار الاستيطاني ، لولا أن قيض الله لرعاية هذه اللغة وحمايتها وإحيائها والمحافظة عليها (جمعية العلماء المسلمين الجزائرية) وزعيمها الشيخ الجليل عبد الحميد بن باديس .

أن أتعرض إلى الشقيقين السيدين عبد الرحمان وسليمان الجندي اللذين يكادان يموتان أسفاً على ضياع لغتنا في ذلك الوسط ، ولو أنهما شخصياً يحسنانها كثيراً . وهما مع ذلك يتدفقان حماساً ووطنية ونشاطاً . ويكادان يكونان الرجلين الوحيدين اللذين استقبلا مُبْعدَنَا السياسي استقبالاً حسناً حين كان الناس يفرون منه لأنه مبعد سياسي .

وأمور الزوايا ومما يتعلق بها في هذه المدينة قليلة جداً ، حتى أنني لم أرها بالمرة ولو أنهم يلاحظون أنها موجودة في ضواحيها ، أما الأمر الذي أرى من واجبي التعرض إليه فهو أمر م . «جان مانكا» . هذا الرجل الأوروبي يظهر أن عوائد الجهة أثرت عليه كثيراً فأصبح له اعتقاد لا نظير له في الولي سيدي «بو حديد» الذي يبعد عن المدينة ببعض الأميال . وهو يذهب إليه في كل عام حاملاً بين ذراعيه ديكاً عظيماً ، عادة القوم ، وهناك يذبحه ويطرح ريشه في زوايا الزاوية ، ويسلمه بعد ذلك إلى القاطنين حوله ليأكلوه . وقد وقع لومه على ذلك فعزم على إبطال هذه العادة ، ولكنه عندما جاء الأجل ولم يفعل سقط مريضاً ولم يقم إلا بعد أن ذبح الديك باسمه بين جدران الزاوية .

أدركت ، كما هي عادتي ، أن أزور الجامع الأعظم في مدينة عنابة فذهبت إليه ، وهناك وجدت أناساً كثيرين في ظل جدار طويل لأن المسجد كان إذ ذاك مقفولاً . وفي وسط الصحن شبه بناية لما اقتربت منها عرفت أنها ناعورة جعلوها هناك لإخراج الماء من الماجن الذي هو تحتها . وقد ألفت نظري النظافة التي وجدت عليها الميضات وتوابعها . أما المسجد فلم أتمكن من الدخول إليه بالرغم من المجهودات التي بذلتها في إيجاد مفتاحه .

في المدينة سوقان كبيران منظمان تنظيماً عجيباً ، أحدهما يطلقون عليه سوق الخضرة ، وهو جميل جداً ويزيده حسناً عرض الخضر والفواكه الذي يدل على ذوق حسن وتجلد غريب . والثاني يسمونه «السوق العربي» وهو عبارة على سوق واسع جداً ، يحيط به برطال كبير من جميع جهاته التي جعلوا في كل واحدة منها باباً كبيراً . وهو من جهة ما يباع فيه أشبه بشيء «بسوق النحاس»[1] بتونس ، ولكنه

---

(1) سوق شعبي بالمدينة العتيقة بتونس العاصمة تباع فيه العاديات والخردوات ولاسيما أواني النحاس وحتى الملابس القديمة المستعملة .

يفوقه بالنظام والاتساع وغزارة الأشياء الموجودة فيه . وقد علمت أثناء تجولي فيه أن الإنسان الفقير يمكنه أن يكسو نفسه منه بما لا يزيد عن العشرين فرنكاً داخل فيها لباس الرأس والساقين . أما منظر هذا السوق من بعيد فهو مدهش لحسن شكله ولوجود شرفات وقباب من الذوق العربي الجميل ، وحول هذا السوق يوجد التجار ومنهم التونسيون .

بالقرب من إدارة البريد يوجد تمثال كبير يظهر أن الاعتناء به كثير ، وهو التمثال الذي أقيم تذكاراً للجنود الذين ماتوا أثناء الحرب الكبرى من أبناء عنابة . وهو يختص على غيره مما شاهدته من هذا النوع قبل هذا اليوم بوجود بساط شاسع من الرخام يحيط به ، مكتوب عليه بجانبه من الأكاليل يكاد يكون أقرب إلى مزبلة زهور منه إلى تمثال محترم .

أما النقود في هاته المدينة فأمرها عجيب . ومن ذلك أن أهلها من جميع الأجناس رفضوا عليّ جميع ما كان في جيبي مما وصل إليّ من بقية الجهات التي كنت فيها . وهم يقولون أن هاته السكة لا قيمة لها عندهم مطلقاً ، ولا أدري إلى الآن ما هو السر في استعمالها بجهة ورفضها بأخرى من عمالة واحدة . على أنني استحسنت هذه العملية وأبقيت هذه النقود عندي وعند رجوعي وزعتها على بعض أحبابي كتذكار فرحوا به من شقيتنا الجزائر .

المسلمون في مدينة عنابة قليلون جداً ، وذلك أنّ عددهم قليل بالنسبة إلى عدد غيرهم من بقية الأجناس . وهم ليس لهم أين يجتمعون اللهم إلا مكان واحد اسمه «ساحة الأسلحة» فيه كثير من المقاهي والمطابخ العربية . في هذا الموضع يجتمع المسلمون وليس لهم ما يشتغلون به إلا ضياع أوقاتهم في لعب النردشير الذي قل فيها من لا يحسنه على ما يظهر . أما الكارطة فهي ممنوعة عليهم منعاً كلياً ولعل ذلك فيه خير .

وهذه المدينة هي البلدة التي رأيت فيها عدداً كبيراً من التونسيين الذين يفدون عليها يومياً ، إما لقضاء حوائجهم ، أو على سبيل الزيارة ، أو سعياً وراء التهتك والخلاعة الذي اشتهرت به ولو أنها دون ذلك . وغالب أولئك الزائرين من الجهات الغربية من الحد الجزائري ، ولعلهم يجدون في الذهاب إليها أقل أتعاباً ومصاريف من

ذهابهم إلى تونس لاسيما وأن دخولنا للتراب الجزائري لا يستلزم رخصة «باسبور» كما يتوهمه الكثيرون .

هذا وإن المدينة جميلة في جملتها ، بها غابة شاسعة من شجر الصنوبر وعلى ثلاثة أميال منها نحو الجنوب توجد «هيبون» الرومانية أين يرى القادم بعض آثارهم فيها إلى الآن .

قضيت في هذا البلد يومين أو ثلاثة توصلت فيها إلى الاطلاع على ما سطته عنها ولو أني أخشى أن أكون قد نسيت بعض أمور جديرة بالذكر . وبعد أن أتممنا سهرتا في اليوم الأخير ودعت من تعرفت بهم . ومن الغد صباحاً كنت في المحطة قاصداً سوق أهراس التي هي في طريقي وأنا راجع إلى تونس هارباً من شدة البرد الذي لم أطق معه صبراً .

وصل القطار بنا إلى بلدة «سوق أهراس» أين عولت على البقاء بعض ساعات هي الحصة التي بين هذا القطار الذي يأتي بعده ذاهباً إلى العمالة التونسية . دخلت إلى البلدة ولأول نظرة يدرك الداخل إليها أنها بلاد جديدة ليس فيها من البناءات القديمة شيء ، وهي مع ذلك ليس ما يلفت الأنظار .

ولعل أهم ما فيها ساحة كبرى تكثر فيها المقاهي الإفرنجية ولا يبعد أن تكون في زمن الصيف متنزهاً جميلاً . جلت غالب شوارع هاته البلدة ولم أعثر في طريقي على رجل لا شغل له ولو أن غالب الأشغال التي يديرونها هي التجارة . دخلت هذا المكان وأنا لا أعرف فيه أحداً ولم أخرج منه بعد مدة قليلة إلا وقد تعرفت بما يزيد عن العشرين رجلاً أعظمُ ما أقوم به في مقابلة الإكرام الذي لاقيته منهم هو عدم التعرض إلى أسمائهم . ولعل القراء يدركون من هذا أنهم يخافون كل شيء . هذا ما فهمته عنهم وقد أدركت أنه وصل بهم إلى درجة الجُبن ولو أنهم يبغضون الوشاية ، وكل تلك الخصال الذميمة التي يستعملها بعض الناس للتوصل إلى رؤية ابتسامة على فم صاحب شأن ، الأمر الذي أدركته من محادثاتهم أثناء الكلام على أشخاص معروفين . أما الحركة الأدبية في هاته البلدة فلا أقول عنها إلا أنها خامدة ولا تحتاج إلا إلى إصبع واحد من يد رشيدة تحركها فتظهر إلى الناس في ثوب قشيب . سألت إذاك عن وجود ناد عربي فأعلموني بأنه غير موجود ولاحظوا لي أنهم ساعون في

تأسيسه ، وفعلاً قد قرأت على الصحافة العربية بعد ذلك التاريخ أنهم أسسوه ، وفهمت مما قرأته عنه أن حياته ستكون قصيرة لوجود الأغراض التي لا يخلو منها مشروع مع الأسف .

سوق أهراس هي البلدة الكبرى التي يؤمها كثير من التونسيين ولاسيما من جهات «غار الديماو» ، و«سوق الأربعاء» و«سوق الخميس» ، و«باجة» أين يقضون ساعات يقولون أنها لذيذة في بعض محلاتها العمومية ولا أدري هل أن المدة القصيرة التي قضيتها فيها هي التي جعلتني لا أشعر بوجود تلك اللذة . فارقتها إلى «العمالة التونسية» بعد خمس ساعات ذلك كل ما عرفته فيها .

وبعد أن قضيت بتونس مدة رأيت نفسي مضطراً للرجوع إلى عمالة قسنطينة للاطلاع على عدة بلدان أخرى لاسيما البلدان التاريخية مثل «تبسة» و«لامبيز» و«تيمقاد» وغيرها ليكون كلامي على هاته الجارة طويلاً . وبعد التردد صحت العزيمة على مبارحة تونس إلى تبسة على طريق «قلعة الجردة» التونسية . وفي اليوم الثالث من شهر ماي كنت في تلك المدينة التاريخية الكبرى أنظر إلى تلك الآثار الرومانية التي تجعل الواقف أمامها لا يدري ماذا يقول عن تلك الأمة الغابرة .

قبل أن أشرع في الكلام عن هاته المدينة أرى من اللازم أن أتعرض ولو ببعض الكلمات إلى الطريق الموصل بينها وبين قلعة جردة لأنه يدل على فرق عظيم بين الأشغال العامة هنا وهناك . فالذي يخرج من القلعة على إحدى العربات لا يبعد أن يجبره القلق على الرجوع لفساد الطريق الذي هو مجرد طريق قديم ، لا تخرج فيه عجلات العربة من حفرة كبيرة إلا لتسقط في حفرة أكبر . وذلك زيادة على اعوجاج الطريق وضيقه . وكأن السائق الذي كنت بجانبه أدرك علي قلقاً فأعلمني أن هاته الحالة لا تدوم ، وأننا بعد مدة سندخل التراب الجزائري وهناك يصير الطريق منظّماً . وفعلاً بعد نصف ساعة كنا أمام «الديوانة التونسية» أين اقتصر مستخدموها على تفتيش بعض أمتعتنا والنظر إلى عيوننا ووجوهنا نظرة تحليل ، وأمرونا بعد ذلك بالذهاب . وقد بقينا نتعجب من هذا الفرق بين الحكومتين في الاهتمام بالطرقات ، ولا ندري متى تهب إدارة الأشغال العامة التونسية للاقتداء بزميلتها الجزائرية التي سبقتها بخطوات شاسعة في هذا المضمار .

أما المناظر التي يشاهدها الراكب في التراب الجزائري قبل وصوله إلى تبسة فلا يمكن له أن يحكيها وأحسن طريقة إلى من يريد أن يسمع عنها كلمة هي المرور بتلك الجهات ومشاهدتها عياناً ، ولو أنني يمكنني أن أقول بأنها أعظم لذة مقرونة بكبر خطر أحسست به في حياتي .

وصلنا إلى المدينة قبيل الغروب أين أوقفتنا الديوانة الفرنسوية بمجرد مرورنا من بابها ، واكتفت بأن سألتنا هل عندنا أشياء جديدة ، ولما نفينا ذلك سمحت لنا بالدخول ، وبعد ربع ساعة خرجت من النزل الذي تسوغت فيه بيتاً وبقيت أنظر إلى المقاهي التي كانت ملأى بالناس وأنا لا أعرف منهم أحداً ، ولم ترق لي بقعة في تلك المحلات لاسيما وقد اتجهت نحوي العيون كلها ولاسيما عيون أعوان المحافظة[1] الأمر الذي جعلني أعتقد أن كل شخص فيها هو عبارة عن بوليس .

ودخلت أخيراً إلى قهوة إفرنجية ، أردت أن أرتاح فيها ، وتوجهت نحو رجلين يظهر أنهما من الأعيان بصدد لعب النرد الذي ترتاح إليه نفسي . جلست حول طاولة بجوارهما وبقيت أنظر ولا أتكلم . بعد خمس دقائق صفق أحدهما إلى الصانع ولما سأله صاحبه ماذا يريد أجابه بقوله : «ليأتي بشيء إلى أحد شعراء تونس سعيد أبو بكر» ، ولا تسألوا عن دهشتي عند سماع هذه الكلمات من رجل لا أعرفه ، وفي بلدة لا أعرف فيها أحداً ، ولكنني لم أتحير وشربت قهوة على حسابه ، ولما سألته بعد مدة كيف عرفني أجابني بأنه يملك «ديوان السعيديات» وأنه عرفني من صورتي التي هي في مقدمته ، وقد ظهر أنه السيد وهاب صالح أحد عدول المحكمة الشرعية بتبسة .

لنرجئ الكلام على أهلها وعوائدهم ، وما شاهدته فيها وفيهم ، ولنبدأ بالكلام على ملخص تاريخها العتيق نظراً لأهميتها التاريخية :

هذه المدينة هي مدينة «تيفست» العتيقة التي كانت لها شهرة عظيمة في القرن الثالث قبل الميلاد ، أين نزلت فرقة «أوقيست» الثالثة في القرن الأول قبل المسيح قبل نزولها في مدينة (لامبيز) . سقطت بعد ذلك بيد الدولة التركية وبقيت تحت نفوذها

---

(1) يقصد الكاتب أعوان الأمن .

إلى 1851 حيث احتلهم جيوش فرنسا وبقيت بها إلى يومنا هذا . وهي كلها تكاد تكون داراً محصنة بسور ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ، وطوله من الشمال إلى الجنوب 320 ميتراً ومن الشرق إلى الغرب 280 ميتراً .

يمكن الدخول إلى مدينة تبسة من أربعة أبواب : واحد من الشمال واسمه باب «الخديمة» ، والثاني من الغرب واسمه «قسنطينة» ، والثالث من الشرق واسمه باب «سلامبو» ، وباب آخر من الجنوب لا أدري ما اسمه ، ويمكننا أن نزيد عليها باباً جديداً فتح بعد استيلاء فرنسا عليها ولو أنه أحقر من أن يذكر لكونه صغيراً جداً وهو في الحقيقة أقرب إلى ثقب في السّور منه إلى باب .

وقد سمعت الناس يذكرون في كلامهم الباب الجديد ولا يبعد أن يكون هذا هو الاسم الذي أطلقوه عليه . ولقد وقع تغيير تلك الأسماء في الوقت الحاضر وأصبح الداخل لا يسمع إلا باب السوق والباب القديم الخ ، وهذان البابان ، ولا سيما الثاني ، هما اللذان ظهر فيهما عظمة الرومان الذين شيدوهما .

والبابُ القديم هو الذي يطلق عليه في التاريخ اسم «قوس نصر كراكلا» ، وهو مزين بأربع سواري عظيمة من كل جهة ومنقوشة كلّها نقشاً بديعاً . وقد أقيم هذا القوس على إثر موت القايد العسكري العالمي «كورنيليس اقريليانيس» في عام 214، حيث كان من جملة ما أوصى عليه بناء هذا القوس العظيم .

وبالقرب من هذا الباب يوجد «قبر منيرفا» الذي أقيم في عصر ذلك القايد نفسه وهو الآن يحتوي على جملة حسنة من الآثار التي عثروا عليها بتلك الجهات ، الأمر الذي أكسبه رونقاً وجمالاً جعلا الاهتمام به عظيماً . وما عدا ذلك فليس في المدينة ما يلفت الأنظار مما له علاقة بتاريخ الرومان .

أما شكل المدينة فهو جميل جداً ، والمناظر التي يراها القادم الجديد تجعله يعتقد أنها بلاد حديثة أقيمت بناية بعد بناية إلى أن تمت ، وزيادة عن كون غالب الطرقات مستقيمة لأن هناك بعض مراكز يقف فيها الإنسان فيجد نفسه في ملتقى أربعة شوارع طويلة ومستقيمة ، ينتهي كل واحد من ثلاثة منها بباب مفتوح على مصراعيه تطل منه العين ، إما على الجبال أو على الأعشاب . ولقد جذبني منظر باب فقصدته وبعد أن تجاوزته بمائتي خطوة على التقريب رأيت عموداً كسر ثلثه ودَرَستْ الكتابة

التي كتبت عليه ، ولكن يظهر مما أمكنني التوصل إلى معرفته أنه أقيم تذكاراً إلى إحدى الفرق التي جاءتنا من تلك الجهة وشاركت في استتباب الأمن العام بالعاصمة التونسية بعيد الحماية .

وحيث وصل بنا الحديث إلى ما هو خارج السور فقد وجب الآن أن أتعرض إلى أعظم أثر تاريخي في إفريقيا الشمالية بعد قصر «الجم» إحدى قرى الساحل التونسي . وذلك الأثر هو الكنيسة الرومانية التي تبعد عن الباب القديم بخمسمائة ميترا . يخرج الإنسان من قوس كركالا أو الباب القديم ، وبعد أن يقطع خمسمائة متراً يجد على يساره الآثار المعبر عنها بالكنيسة ، والذي يطلع على جميع تلك الآثار يتعجب من إطلاق هذا الاسم على تلك البناءات كلها المحتوية على عدة أشياء لا علاقة لها بالكنيسة ، مثل الإسطبل الذي لا يزال على حالته القديمة كأنه خلق بالأمس .

على أن الشيء الذي يجب الاعتراف به هو أن هناك جزءاً صغيراً في جهة من جهات هذه الآثار يظهر عليه أنه آثار كنيسة ليس إلاّ . وعندي أن تسمية ذلك الكل باسم قصر صغير منه هو الظلم بعينه . وقد أردت أن أستخبر الناس عن مجموع تلك الآثار فلم أتوصل إلا إلى كونها مقر الحكومة بجميع أقسامها ، ولعل وجود ذلك الإسطبل يجعل هذه الرواية قريبة من المعقول ، وضرورة أن الحكومة تحتاج إلى أعوان يركبون الخيل .

يدخل المتفرج إلى هذه الكنيسة من باب حديدي يطلب مفتاحه من عائلة مسلمة مكلفة بذلك . وبمجرد اجتيازه يجد أمامه ممشىً متسعاً ومستقيماً على غاية من النظافة الأمر الدال على الاعتناء الكبير ، وعلى اليمين واليسار درجات عريضة جداً يطلع منها الإنسان إلى أقسام عديدة لا يكاد يضع ساقه عليها حتى يشاهد أنواعاً من الفسيفساء أو من الجليز الظُّفْيري لم يتطرقها فساد كبير . أما السواري التي لا تزال قائمة برأسها إلى الجو فإنها تدل على دقة في الصنع وحكمة في التركيب ، هما في حد ذاتهما دليلان على ما بلغته دولة الرومان من التفوق والحضارة .

يجد الداخل على يمينه بعد اجتياز بضع درجات الكنيسة وما يتبعها يجد بيتاً تدل هيأتها على أنها كانت بيت غسل المصلين ، ويجد أيضاً فتحاً كبيراً إذا اجتازه

الإنسان وجد درجات أخرى مؤدية إلى بيت على شكل ورقة نوع من الأعشاب يقال لها «النفلة» وذلك البيت هو بيت الصلاة . على أن الذي ينظر بدقة يمكنه أن يرى المحراب منتصباً أمامه . ويحيط بالكنيسة وتوابعها عدة بيوت لا شك أنها كانت مجعولة للمتعبدين وللمتعبدات . أما على يسار الداخل فليس هناك ما يلفت الأنظار أكثر من بيت على جدارنه ما يقرب من مائة تمثال من حور الملائكة هي بعيدة على الأرض بمتيرو واحد على التقريب . وفي هذه الجهة أيضاً ثلاثة بيوت يظهر ويقال أنها كانت معدة إلى النزهة ليس إلا .

أما تاريخ هذه الكنيسة ، أو هذه الآثار ، فيرجع إلى القرن الرابع . ولابد لنا مع هذه الحقيقة أن نعترف بأنه أدخل عليها بعض إصلاح جعلها محفوظة إلى يومنا هذا .

ولا بأس بعد الفراغ من الاطلاع على الكنيسة أن يذهب الإنسان إلى دشرة يقال لها «تبسة الخالية» ، هذه الدشرة تبعد عن مدينة تبسة بما يقرب من ميلين من جنوبها الغربي ، وبالقرب منها آثار حمام كبير حفروه في السنين الفارطة ووصلوا إليه بعد أن بعثروا طبقتين من القبور .

والقادم على ذلك الحمام يعلم أنه في شكله يقرب كثيراً من حماماتنا اليوم ، أما الشيء الذي يلفت الأنظار فهو تنور هذا الحمام الذي كنا نشاهد بأعيننا بقيته باقيةً من السواد الذي كانت النار تحدث فيه . هذه الآثار مع أهميتها ليس لها حظ الالتفات لها والاعتناء بها في نظر الحكومة ، ولذلك فقد اتخذتها المارة والرعاة مزبلة بدون أن يتصوروا قيمتها أو الأتعاب أو المشاق التي تحملها الناس في سبيل إظهارها إلى الأبصار . سمعت الناس ينسبون هذه الآثار إلى عمل م .«ريقاس» متصرف تبسة إذ ذاك ومدرس التاريخ والآثار القديمة بكلية الجزائر الآن . وهذا غلط منهم لأن تلك الآثار كان بعضها ظاهراً ولم يكن إلى م . ريقاس هذا إلا فضل إظهار باقيها بما عنده من السلطة على تلك الجهات .

وحيث جرنا الحديث إلى رجل اشتغل بآثار تبسة فإني أرى من المناسب التعرض أيضاً إلى القسيس م . «ديلابار» الذي توفى منذ ما يقرب من ثلاثين سنة . كان هذا الرجل يبذل الأموال الطائلة في سبيل الحصول على كل شيء من الآثار ، التي كان أهالي تلك الجهات يعثرون عليها . وبهاته الطريقة قد أمكنه جمع كل ما في قبر

منيرفا الذي مر ذكره قبل الآن . ومما يحكى عنه أنه كان اشترى حجرة مرصعة ملكت لبُهُ حتى أنه أبى أن يضعها مع أخواتها وزين بها كنيسته . وقد لفتت هاته الحجرة أنظار بعض الأشقياء فسرقوها . لما جاس القسيس من الغد ولم يجدها تأثر كثيراً فأخذوه إلى بيته ولم يخرجوه منه إلا إلى مقره الأخير . أما الحجرة فقد وجدت بعد موته ، وهي الآن بقبر منيرفا يمكن لكل قادم أن يراها .

كفانا الآن من التحدث عن آثار تبسة وتاريخها ولنلتفت إلى جهات أخرى ، كان سبق لي في أول كلامي من هذه المدينة أن ذكرت أن جميع الأعين التفت لي بما خيل إليّ أن كل من فيها أعوان محافظة ، وها أني الآن أكتب عن شيء له علاقة بذلك ربما أفاد من يريدون زيارتها بعدي .

كنت جالساً حول مائدة العشاء في مطعم الخان الذي تسوغت فيه بيتاً ، وإذا برجل فرنساوي ورجلين مسلمين يقفون خلفي ما يقرب من دقيقتين ، ثم يتقدم أحد ذينك المسلمين ويقف أمامي وينظر إلى الباب ويقول مختلقاً هذه الكلمات : «بوليس السياسة! بوليس البوليتيك!» ثم التفتوا جميعاً إليّ . أما أنا فلم أتحرك لهاته المكيدة لأنني كنت أنظر إلى أعمالهم من أول لحظة ، وذلك بواسطة مرآة موضوعة بالحائط أمامي لم ينتبهوا إليها . ولما فشلوا خرج المسلمان ، وجاء الفرنساوي وجلس حول مائدتي بالرغم من وجود عدة بقاع ، وأخذ ينظر إليّ نظرات تحليلية كنت أقابلها بنظرات البله والسخافة . ولما أتممت عشائي أوهمته أني خارج . ثم رجعت ، وقلت له : «أليس من الأحسن أن أشرب قهوتي هنا» . هنالك أدركت أنني غير مراقب وقام ولم أره بعد ذلك .

ولو فكر الإنسان ملياً في مسألة كثرة أعوان المحافظة ، وفي تشديد الرقابة على القادمين إلى تبسة ، وسيما من يلوح عليهم أنهم من خارج العمالة وأحرى من يحملون الطربوش القاني المستطيل على رؤوسهم ، لعذر الحكومة في اتخاذ الحيطة لنفسها لأننا نعلم كلنا المتاعب والمصاعب التي وجدتها في سبيل فتح هاته الجهة والاستيلاء عليها . ويرجع ذلك كله إلى وجود عدة قبائل ، وأشهرها اللمامشة ، كانت بيدها مقاليد أمور تلك الجهات في زمن الأتراك وهي مع ذلك ميالة إلى الحرب من طبيعتها ، والظاهر أن هذا السبب عينه هو الذي جعل الحكومة أيضاً تهتم كثيراً بتوفير

الجنود في تبسة ودائرتها ، وأي شيء أدل على ذلك من كون «القشلة»[1] العسكرية وحدها تزيد مساحتها على مساحة المدينة كلها بما يقرب عن ثلاث مرات . ويظهر أن الحكومة قد عرفت أنها كانت واهمة ، وعلمت أن قدمها قد رسخت فعولت على التنقيص من مساحة هاته القشلة العظيمة لتضيف قسماً منها للمدينة أين وقع العزم على بناء إدارة البريد والمسرح البلدي وعدة إدارت أخرى .

الحركة التجارية في مدينة تبسة كبيرة جداً وذات أهمية على قدر أهمية المراكز التي تحيط بها وكثرة العمران فيها ، ولكن تلك الحركة تكاد تكون محصورة في قبضة جماعة مثيرة من «بني مزاب» المشهورين بالحزم والنشاط ، وجماعة قليلة لا يتجاوزون أصابع اليد من العمالة التونسية ومن بلدة «نابل» إذا أردنا التخصيص . أما أهل البلد فليس بأيديهم إلا مسألة تجارة الحيوان . فهم يشترونها صغيرة ويشاركون فيها غيرهم ممن يسكنون بالغابات والجبال المجاورة ليرعى بها في مقابل مناب من ثمن بيعها أو من الربح يتفقون عليه . أما الأمر الذي يكاد يلمسه حتى القادم عليهم فهو حقدهم على بعضهم ، وشدة تحاسدهم لا على ثروة يحصلون عليها أو تجارة يوسعون نطاقها أو فلاحة يستدرون بها خيرات الأرض ، ولكن على «البوليتيك» كما يقولون وهم يجعلون تحت هذا العنوان حتى مسألة انتخاب عضو بلدي .

عرفت رجلاً هناك وتفارقنا على نية اللقاء غداً . ولكن ما كان أشد اندهاشي عندما جاء الغد ومرَّ الصاحبُ من أمامي ولم يكلمني ، وقد اتضح أنه غضب عليَّ لأنني تناولت العشاء عند أحد خصومه في البوليتيك . وقد وقفت من هذا القبيل على ما فهمت منه أن هذا الداء يوشك أن يضع بين مخالبه حتى الذين ينتسبون إلى العلم ضرورة أني كنت أرى بوارق فتنة بين رجلين يشتغلان هناك بالتدريس أحدهما من قدماء الزيتونة ، والآخر من قدماء الأزهر لا يبعد أن يكون منشأها التحاسد والتنازع على مركز رجل العلم والتدريس في المدينة .

أخذني السيد محمد الصالح الجلالي إلى الجامع الكبير بتبسة ، فإذا به جامع صغير توهمت أنه لا يسع المصلين كلهم ، وفي الوقت أعلمني أنه أصبح ضيقاً وقد

---

(1) الثكنة .

جعلوا له فرعاً فوق سطحه يصلي به أناس كثيرون . وهو مع صغره جميل كله مفروش بالزرابي ، وفي جهة من جهاته عدة خزائن مملوءة كتباً هي عبارة عن مكتبة عمومية لا تحتوي إلا على كتب الفقه والتوحيد والحديث والتفسير وما هو متعلق بها ، فهي إذن مكتبة دينية ليس إلا .

أما الشيء الذي ألفت نظري ولم أر نظيره في غيره هاته المدينة فهو ميضأة هذا الجامع التي هي عبارة عن خليط من ميضاة وحمام صغير . يوجد بوسطها تنور كبير لتسخين الماء ، وهنا رجل مشتغل بهذه العملية لا يفارق الميضاة في أوقات الخدمة كأنه متوظف . وأمام هذا التنور ثلاثة بيوت بأبوابها معدة للغسل الأكبر ، وقد جعلوا ثمنها أربعين صانتيماً فقط ومن مجموعها يشترون الحطب اللازم ويخلصون ذلك المتوظف . أما الفقراء فإنهم لا يدفعون شيئاً على أنهم لا يجبرون أحداً عن الدفع حتى الأغنياء إذا عز عليهم أن يدفعوا . وهذه الطريقة من شأنها أن تسهل الطريق للقيام بفريضة الصلاة الأمر الذي يدركه الإنسان على سكان تبسة .

الحركة العلمية هناك ضئيلة جداً والحركة الأدبية تكاد تكون مفقودة والصحف العربية التونسية هناك لا رواج لهان بالرغم من كون المدينة لا تبعد عن التراب التونسي إلا ببعض الكيلومترات ، ولو لم أجد بعضها عند السيد محمد بن جمانة أو السيد الصادق بوذراع اللذين لهما اهتمام زائد بمطالعتها لقلت إنها تدخل إلى تلك الديار مطلقاً .

بلدة العين البيضاء إن صح ما سمعته من بعض أهلها هي بلدة لها من العمر اليوم سبعة وسبعون عاماً بالضبط . وهذا الأمر يقرب جداً من الحقيقة إن لم يكن هو الحقيقة عينها . ضرورة أني وقفت على أول بناية أقيمت في تلك الناحية وهي القشلة العسكرية ، ورأيت على مدخلها سنة تأسيسها عام 1851 يدخل القادم إلى تلك البلدة فيدرك أنها محط رجال أبطال الدومينو . والأمر الذي هو من خصائص هذه البلدة هو انهماك أهلها في هاته الألعاب وتفويت مصالحهم الشخصية ، ولعل انهماكهم هذا هو السبب الوحيد في كثرة النساء المشتغلات بالبيع والشراء في شوارع البلدة . ولو أني لا أريد أن يفهم القراء من هذا أن نساء جميع تلك العائلات الفقيرة التي ابتلي رجالها بحب البطالة ، فقامت نساؤها لسد تلك الثلمة سعياً وراء لحصول

على القوت اليومي .

هل تظنون أن هناك مكاناً يمكن للإنسان أن يقضي فيه ساعة أنس . هل تظنون أن هناك نادياً أو جمعية تلم شعث الأنفار القليلين الذين يمكن أن يقال أنهم يدركون معنى الحياة . وهل تظنون أن هناك على الأقل مكتباً عربياً أو مدرسة عربية أو حتى محلاً لقراءة القرآن العظيم ، «كلا» ولو أن وطنينا السيد الكامل بن عزوز كان أسس مدرسة ذهبت شوطاً بعيداً في سبيل التقدم ، ولكنه أخفق أخيراً ولعنة الله على الأغراض .

وبلدة العين البيضاء هي البلدة التي يمكن للإنسان أن يشاهد فيها المرأة أكثر من غيرها ، ولو أن هاته المرأة تختلف عن نساء المدن الجزائرية وحتى نساء العائلات الكبيرة في البلدة نفسها ، وعلى كل حال فالذي يظهر على امرأة العين البيضاء هو كثرة الوشام الأمر الذي أثر على جمالها ، وأفسد لها وجهها رغماً عن كونه يظهر عليه الذوق السليم ودقة الصناعة . وأكثر ما تستعمل المرأة هناك الوشام في خدّيها وإذا أضافت عليه شيئاً ففي جبهتها وفي ذقنها .

ويظهر أن هذه العادة قد أثرت على نساء الجاليات هناك فأصبحن يستعملن الوشام أيضاً ويستعملنه إلى أولادهنّ فيكبروا وذلك الوشام معهم ، يستطيع أن يكون دليلاً على حزم تلك الجهة وعلى تعلقها بخدمة الأرض واستخراج خيراتها . فهم لا يشوهون وجوههم بذلك الوشام وإنما يستعملونه ، أو يستعمله بعضهم ، على أيديهم وغالبهم يرسم على يده صورة محراث سوري[1] أو صورة ماكينة حصاد أو غير ذلك من أدوات الفلاحة .

ولعل هذا أعظم دليل على نشاط أولئك الناس ، ولا أدري لماذا لا يتخذ الجزائري هناك من أعمالهم درساً ، ولا يتخذهم قدوة لخدمة أرضه التي يراها تدر على من يخدمها من خيراتها وهو لا يكاد يحصل منها على مؤونة عامة .

العين البيضاء لها سوق يقع كل يوم اثنين ، يأتيه الناس من جهات كثيرة قريبة من البلدة . وربما جلس الإنسان يوم السوق بإحدى المقاهي ، وحاول أن يسمع حديث

---

(1) يعني أجنبي .

الناس ليفهم منه بعض الأخلاق والعادات ، ولكنه لا يفهم شيئاً . يجتهد بعد ذلك ويقرب منهم ولكن يستحيل عليه أن يفهم ولو كلمة واحدة . وذلك لأن أولئك الأقوام لهم لغة مخصوصة يتكلمونها فيما بينهم بمحضرك وبمحضري وبمحضر الناس أجمعين ، بدون أن يعرف الإنسان في أي شيء هم يخوضون ، وهذه اللغة الخصوصية هي التي بودي أن يسمعها الناس ويدركوا غرابتها بأنفسهم وها أني أضع أمام القراء بعض مفردات جُمل تُوقفهم عليها :

إذا أراد أن يقول لك : «كيف حالكم» مثلاً قال لك : «مُوكَشاهلّيتْ» بكسر الهاء وتشديد اللام . وإذا أراد أن يقول لك : «متى قدمت» قال لك : «مَالْمي التُوسيذْ» ، ويظهر أن هذه اللغة لغة واسعة ضرورة أنهم لا يطلقون الكلمة الواحدة على النوع الواحد من الأشياء أو الحيوانات . وهم يطلقون اسم المرأة مثلاً على الأنثى كيفما كان عمرها ، وإنما هم يطلقون اسم «شَاهُوتْ» على البنت واسم «تَمْطُوتْ» ، بفتح التاء والميم وتشديد الطاء على المرأة الوسط ، واسم «أمْغَارَاتْ» بفتح الألف وسكون الميم على المرأة العجوز .

والغريب في لغة هؤلاء القوم أن الإنسان لا يمكنه أن يسمع ولو الحروف التي ينطقون بها فضلاً عن الكلمات . وأني ما كنت أتوصل إلى بعض ألفاظ منها لولا أني استعنت على ذلك بواسطة الصديق عبد الرحمان بن عزوز الذي كان يكاد لا يفارقني . أخذني هذا الصديق إلى داره وليس لي ما أقوله عن داره التي لم أر منها إلا البيت الذي كنا نجلس فيه . وماذا يهم القراء أن أحدثهم عن ذلك ولكني أكون ظالماً إذا أنا لم أقل شيئاً عن الطريق الذي يطلق عليه اسم «طريق البساتين» لاكتفيت بذلك ، ولكنني أعرف أنه لا يقتنع بذلك فلأَقُل أكثر من ذلك .

لا يكاد يصل الإنسان إلى هذا الطريق ، حتى تعرضه رائحة الطيب التي لا يلبث أن يعرف أنها تلك الرائحة المنبعثة من عدة بساتين على يمين ويسار الطريق ، جعل أصحابها جانباً وافراً منها محفوفاً بالزهور على اختلاف أنواعها .

وهاته البساتين تكاد تكون لا أهمية لها من غير هذه الوجهة لأنها لا تحتوي إلا على شجرات قليلة جداً من الأشجار المثمرة ، وعلى كثير من شجر الصنوبر ، الذي يراه الإنسان يناطح السحاب . على أن المرور من هذا الطريق على كل حال يذكر

الإنسان في حبيبه ، وفي مجلسهما بين حفيف الأوراق وزقزقة الطيور . ولو اعتنت به البلدة أكثر من اعتنائها به اليوم لكان أجمل شيء في العين البيضاء . ولكنها يعز عليها أن لا ترى البعوض يتطاير من مجاري الماء لقلة تعهدها ، ويعزّ عليها في الليل أن تراه مُنَاراً .

الناس في هذه الجهة يكثرون من تسمية أولادهم باسم محمد ولكنهم يجعلون منه عدة أسماء أخرى ، ينادون بها الولد إذا كان عزيزاً عند أبويه ، منها «حَمَّهْ» و«حمانه» ، وإذا كان الولد عزيزاً جداً قالوا «موحندْ» بكسر الحاء وكسر النون وسكون الدال والتلفظ بها بين الدال والتاء . ولماذا لا نتعجب من ذلك وعندنا بالعاصمة وببعض مدن العمالة من يطلقون حمّادي على ولدهم إذا كان اسمه محمداً ، و«علالة» إذا كان اسمه علياً؟ .

الجالية الفرنسرية في العين البيضاء قليلة ، والظاهر أنهم يسكنون بضواحيها ، ضرورة أنهم يكثرو ، يوم سوق البلدة الأسبوعي . أما النساء الفرنساويات فهن كثيرات في كل أيام الأسبوع ويظهر عليهنّ الطيش في كل مكان .

أذكر أني ذهبت مصحوباً بالصديق عبد الرحمان إلى إدارة البريد ، فرأينا الفتيات هناك في شغل عن الناس بإصلاح ما فسد من زينة وجوههن ، وتناسق ثيابهن أمام الجمهور ، وقد أرادت إحداهن أن تسخر مني فبادرتني بقولها وبلهجة الدلال والتهكم : «عن أي دار أنتم تنوبون يا سيدي» . ولكن ما كان أشد خجلها عند ما أجبتها وكان وجهها مُلوثاً بغبرة الوجه : «أنوب داراً تبيع «البودر دي ري»[1] ديوازال» .

وما دمنا في إدارة البريد فإني أود أن أوقف القراء على فتاة هناك لا أقول إنها غير جميلة ، قيل لي إنها مسلمة تجنست عائلتها بالجنسية الفرنساوية ، فظهرت منها هذه البنت وهي أوروبية بأتم معنى الكلمة لا فرق بينها وبين الفرنساويات ، فهي تلبس لبسهن ، وتمشي مشيتهن وتستعمل كل ما يستعملن من عمليات الزينة والتَّجمل .

وقد كدت أن لا أصدق مخبري لو لم يقدم المدير أمامي ويستدعيها باسمها «مدموازيل بلقاسم» ، والذي يعرفه الناسُ عن هذه الفتاة هو بغضها اللغة العربية .

---

(1) المساحيق .

فهي لا تتكلم بها أبد الآبدين حتى مع الجزائريين الذين لا يحسنون الفرنسوية ولو أدى ذلك إلى جلب مترج . وذلك كله حرص منها على أن تظهر بأنها فرنساوية قلباً وقالباً . وهي لا تقنع بأن لا تتكلم بلغتها فحسب بل لا تريد أيضاً أن يعلم الناس عنها أنها تحسنها ولكن اسمعوا :

وقفت أمامها لشراء بعض طوابع البريد ، وبقيت أنتظر فراغها من عمل كانت بصدده مع عربي وصل إليها قبلي . طلبت من هذا العربي أن يعطيها أربعين فرنكاً ليأخذ الملف الذي جاء باسمه «كونتر رامبورسمان»[1] . لم يفهم الرجل القدر المطلوب منه فطلبت منه تعريبه إليه ليفهمه ، وما كان يضرها لو عربته إليه بنفسها؟ ، التفت للرجل وقلت له : إنها تطلب منه أربعين ألف فرنك . ولم تكد تسمع كلامي حتى صاحت وخاطبتني بالفرنسوية لتقول أنني غالط . هناك أدركت أن هذه المرأة قد حلفت بالطلاق على أنها لا تنطق بالعربية مدة حياتها .

يظهر الآن أن الكلام على هاته البلدة قد طال ، وكان من الواجب أن لا يكون طويلاً ، وكأني بالقراء يريدون مني أن أنتقل بهم إلى بلدة أخرى نعم هو ذاك .

الحياة العامة في «خنشلة» كادت تكون فردية ، ولذلك فالاجتماعات تكاد تكون نادرة أيضاً . وأتذكر أنني لم أجتمع إلا في مجلس عائلي ومجلس آخر أدبياً ضم قاضي البلدة السيد يوسف عزوز وبعض عدولها وقاضي جبل شِشار السيد أحمد قريشي الذي طالما زارنا في تونس ، والذي لن يترك لنا وقتاً كافياً نرتاح فيه من الضحك لنكاته العجيبة . ولو لا أنه ظن أني ربما تعرضت إليها في هذه الرحلة وطلب مني إغفالها لكتبت بعضها وأظهرت إلى التونسيين أنموذجاً من اجتماعات الجزائر الأدبية التي استوى فيها الحب ورُفعت الكلفة .

هذا والظاهر أن هاته البلدة مثل سواها ليس لها من الأهمية إلا وجودها في بقايا «ماسكولا» الرومانية ، ووجود غابة أولاد يعقوب في جنوبها الغربي . وفيها اليوم حركة نقل عظيمة منها إلى سائر الجهات التي تحيط بها ، بحيث يمكن للإنسان أن

---

(1) كلمة فرنسية تعني ((بضمان الدفع)) أي لا يسلم الطرد أو الرسالة المرسلة إلا إذا دفع المرسل إليه ثمن البضاعة .

يجد أين يركب إلى أي بلدة وفي كل ساعة . ولذلك فقد اخترت الذهاب إلى «باتنه» على سيارة أمكنني بها أن أنجو من ساعات طويلة يقضيها الرتل جزافاً بين هاتين البلدتين . وفي هذه السيارة فقط تصورت ثرثرة النساء التي طالما تكلم عنها الأدباء العرب والإفرنج ، وذلك لأن سوء الحظ قضى علينا بأن تركب معنا امرأة من خَدَمَة بعض الأضرحة حسبما صرحت به ، ومن المجنونات حسبما فهمت لم تسكت طوال الطريق أي مدة أربعة ساعات كاملات .

وأخيراً وصلنا إلى باتنه وقد قدر الله أن نصلها سالمين وهذه البلدة أنشئت عام 1844 في مكان اسمه «رأس العيون» حيث أقيمت قشلة عسكرية . وفي عام 1848 وقع الشروع في بناء الديار إلى أن صارت اليوم وعدد سكانها يفوق الستة آلاف نسمة . وهي نظيفة ومنظمة بها سوق عربي جميل وأنهج واسعة أهمها نهج الجمهورية الذي ينتهي إلى ساحة الكنيسة أين «التياترو» ، والمحكمة وسوق الخضر . وقد صادف وصولي إليها يوم سباق الخيل رأيت فيه من الخيل والبشر ما فهمت منه أن القوم ينظرون إلى هذا النوع من الرياضة بعين ملؤها العظمة والافتخار .

كان هذا اليوم بباتنه ، يوم سباق الخيل يوماً عظيماً . وكانت الأنهج كلها ملأى بأولئك الذين جاءوا من بعيد بخيلهم للمشاركة في السباق سعياً وراء الحصول على جائزة مالية كبرى . وكانت اللجنة المكلفة تفحص الخيل ، وتقبل ما شاءت منها وترفض ما شاءت . والويل كل الويل لمن لم يحز مركوبه رضى تلك اللجنة ، ولم يسعد بالإذن له في المسابقة ، فإن زملاءه والحاضرين كلهم لا يبخلون عليه بكلمات وإشارات السخرية والاستهزاء .

وقد كنت أود الذهاب إلى محل السباق مع الذاهبين ، ولكن اليوم كان حاراً بصفة مدهشة لا يكاد الإنسان يطيق منه الوقوف في ظل الجدران ، ولا أدري والحالة تلك كيف تم ذلك السباق في الساعة الثالثة من الزوال لأنني ذهبت في حيني إلى «بسكرة» ومنها إلى بلدة سيدي عقبة مصحوباً بالصديق القديم السيد العزوزي حوحو الذي كان عندنا بتونس منخرطاً في سلك تلامذة الجامع الأعظم ، والذي كانت له علاقة كبرى مع الكتاب وأصحاب الصحف ، تلك العلاقة التي يظهر أنها أبقت عنده تذكاراً جميلاً والتي كدت ألعنه بسببها لكثرة السؤالات التي كان يوجهها لي لمعرفة

أحوال زيد وعمرو وبكر وخالد .

قطعنا العشرين ميلاً التي تفصلها عن بسكرة من جهتها بين الجنوب والغرب ، وقد دخلنا إلى داره فشعرنا براحة جعلتنا نفضل بقاءنا فيها على الخروج تفصياً من شدة الحر الذي قيل لي عنه أنه بداية فصل الصيف ليس إلا؟ . هناك تذكرنا عهداً قديماً ، واجتماعات قديمة ، وتذكرنا تونس وأصدقاءنا فيها ، ولما رأيت دمعة تجول في عينيه غيرت الحديث وطلبت منه أن يطلعني على مكتبته الصغيرة . ولو لم تفاجئنا الخادمة بإبريقها وبطاولة الأكل لما تحولنا عنها .

خفت وطأة الحرارة ، وخرجنا إلى السوق لمقابلة الصديق مكي إسماعيل ووالده الشيخ القاضي . والذي يدركه الإنسان من أول وهلة أن البلدة كلها مبنية من الطوب لا فرق بين البنايات الحقيرة والعظيمة ، ولا بين ذات الطابق أو الطابقين ، وذلك لقلة وجود الحجر في تلك الجهات . فهي إذن مثل بلدة جمّال بالساحل التونسي قبل أن يكون بها معمل الياجور[1] .

وبلدة سيدي عقبة تمتاز على غيرها من بلدان الجزائر بكثرة الناس فيها . وإذا علمنا أن سكانها لا يزيدون على السبعة آلاف علمنا أن الناس يفدون عليها يومياً من جميع الجهات القديمة منها لاسيما في فصل التمر والحبوب . وبها ساحة كبرى هي محل الاجتماعات أين كنت أبصر أكداس القمح والشعير تكاد تصل إلى أعالي الجدران ، وعربات نقل البضائع داخلة إليها وخارجة منها في كل وقت ليلاً ونهاراً ، والناس كلهم في فرح وسرور لا يكاد الرجل يسمع حديث مجالسه من شدة صياحهم وهرجهم .

وإذا أنت سألت عن سبب ذلك ، وسؤالك دليل على الغباوة ، عرفت أنهم حصلوا على صابة وأن سنتهم الفلاحية في ذلك العام كانت سنة خصب . ولا عجب أن تعطي أراضي سيدي عقبة إلى خادميها جزاءهم ، وهي المشهورة بأنها أراض جيدة وصالحة . وقد سمعت من بعض من اجتمعت بهم فيها أن البطيخة الواحدة تصل عندهم إلى التسعين كيلو ، و«الخصة» إلى ثلاثة أرطال ، ويصل طول الفول إلى

---

(1) يقصد الآجر الذي يسمى في بعض دول المشرق العربي بالطابوق .

خمسة وستين صانتيمتر ، الأمر الذي لا يكاد يصدقه السامع والحال أنهم صادقون . وقد أدركت عن أهل هذه البلدة أنهم لا يسْعون في مخالطة أعوان الحكومة مطلقاً ، وذلك بأن أولئك الأعوان لا يكاد يقع العقبي بين أيديهم حتى ينتقموا منه ويفعلوا به ما أرادوا . وما لنا والتعرض إلى غلط الأعون أو صوابهم وكلنا يعلم أن النفس الأبية والهمة العالية تسخران من كل شيء .

والناس هنا يعتنون كثيراً بغراسة النخيل ، ويعولون كثيراً على صابتها ، وبعضهم يبيعها وهن في أمهاتها غير ناضجة ، والمحتاج يبيعها من قبل أن تخلق . والعجب أنهم يجدون من يشتريها منهم قبل وجُودها . ولعل ذلك يرجع إلى ثقتهم بصابتها . والبلدة على كبرها تظهر مثل البناية الصغيرة في وسط مائة وعشرين ألف نخلة حسب الإحصاء الأخير . وزيادة على ذلك فإن غالب الناس أصبحوا يفضلون غرس أراضيهم نخيلاً على إبقائها بقصد زراعة الحبوب ، ولا يعلم إلا الله مستقبل النخلة في تلك الجهات .

وأهم ما في سيدي عقبة جامعها العتيق وهو مفتوح حتى إلى النصارى القادمين من جميع أقطار الدنيا ، ولا يكلفهم الدخول إليه إلا بعض فرنكات يسملونها إلى القيم أو إلى الرجل الذي دخل معهم وأوقفهم على ما فيه .

وبجوار هذا الجامع كتّاب يقرأ فيه الأولاد القرآن ويحفظونه . ويظهر أنه كان في وقت من الأوقات ضيقاً بالنسبة إلى سكان البلاد فأضافوا إليه مساحة أخرى . محراب الجامع جميل في الجملة وقد كتب على يمين الواقف أمامه ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَدَاً﴾ ، وعلى يساره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾ ، وعلى البقية : «كتب السعد عليها فادخلوها بسلام» ، وفي وسط المسجد بناية صغيرة هي المحل الذي دفن فيه سيدي عقبة ، وهو ضريح كسائر الأضرحة التي للناس فيها بعض الإعتقاد ، وبه عدد وافر من الإطارات المكتوبة بعضها بالخط الكوفي وبعضها بالخط الثلثي وفيها آيات قرآنية وحكم وصلوات على النبي ﷺ .

قدم رجل وأنا قريب من الضريح وارتمى على أحد جدرانه وأخذ يقبلها كأنه يقبل أعز عزيز لديه . ولما أتم عمله هذا اقتربت منه ولُمته فقال لي : «أنتم أحرقتم لنا الزيتونة ، فهل تريدون أن تهدموا الجامع أيضاً» بلغته العامية بدون شك . ولما طلبت

منه أن يخبرني عن هاته الزيتونة التي سمعته يتكلم عنها فقال لي : «هي زيتونة قديمة جداً وولية كانت العاقر إذا زارتها تلد ، وإذا زارها مريض شفي ، أو صاحب حاجة قضيت . قد عمد إليها من كل الخبيثين : مكي إسماعيل والحاج عمر العقبي وصبّا عليها بعض ليترات من «اللصانص»[1] وحرقاها . وقد بقيت النار تشتعل فيها ما يقرب من أسبوع كامل» .

هنالك قلت له أخذا بخاطره يا لهما من خبيثين ، وقلت في نفسي أنهما قد أحسنا صنعاً إذا صح أنهما قاما بهذا العمل . ولا شك أنهما حرقاها ، إذا صحت الرواية ، عندما رأوا الناس يعبدونها من دون الله .

وأظن أن هذا أحسن مناسبة ندخل منها للكلام على الطرق والزوايا في هاته الجهات ولو أن القراء قد اطلعوا على ذلك أثناء الكلام على بسكرة . كم هي المرات التي سمعت فيها بعض سكان سيدي عقبة يتجرون من أعمال أصحاب الزوايا؟ وهناك سمعت أيضاً أن مسألة الطرق عندهم أصبحت مسألة تجارية بحتة تقوم بها شركات ذات رأسمال معلوم . تبتدئ هذه الشركة ببناء زاوية مهمة وإيجاد رجل له شهرة عند العامة تبني له مقاماً هناك ، وتطلب منه أن لا يخرج من محله إلا نادراً ، وهي تعطيه في مقابل ذلك شيئاً كثيراً بخلاف ما يأتيه من أولئك المعتقدين فيه ، أو من أولئك النعاج بتعبير آخر ، والشركة تقوم بشراء ما يلزم جميع الزائرين من البقر الواجب ذبحه لهم ومن الطعام اللازم وذلك مدة عام على الأقل . وإذا انقضى هذا العام وشاع صيت الزاوية الجديدة أصبحت الهدايا يتبع بعضها بعضاً وأصبحت الشركة الطريقة في هناء دائم ونعيم مستمر .

ومما سمعته أيضاً ، وهو من الأمور المضحكة ، أن هؤلاء الناس يستعينون على جلب البسطاء إليهم والتمويه عليهم بالمرآة المقربة فتراهم ينظرون بها ، ويختارونها من أحسن الأنواع ويرن القادمين عليهم وهم بعيدون عنهم بعداً شاسعاً حتى إذا رأوهم قربوا انزوى كبيرهم وعندما يدخلون عليه يعلمهم بجميع حركاتهم وسكناتهم فيخروا له من الساجدين . . .

---

(1) البنزين .

وهكذا استطاع أناس تلك الجهة أن يجعل من كثيرها بقرة حلوباً . أما الأمر الذي يكاد يرتاح له الإنسان ، فهو ما سمعته أيضاً من أن هذا التيار آخذ إلى النقصان ، وما ذلك اليوم الذي سيفتح الناس فيه أعينهم ببعيد .

ولكي أختم الكلام على سيد عقبة لم يبق إلا أن أقول بأنني مكثت بها يومين لم أر فيهما نصرانياً ، وقد علمت أنها ليس فيها ولا واحد منهم ، وقربها من بسكرة جعل السواح يزورونها في بعض فصول السنة ، ويرجعون في الحين .

«لسان الشعب»[1]

---

(1) نشرت هذه الرحلة بالأعداد التالية من جريدة ((لسان الشعب)) :

28 ديسمبر 1927/4 ، 11 جانفي 15 فيفري -1 ، 14 ، 29 مارس - 4 ، 11 ، 18 ، 25 أفريل - 2 ، 9 ، 16 ، 22 ماي- 6 جوان- 25 جويلية- 1 ، 2 ، 5 ، 19 ، 26 أوت- 3 ، 10 ، 17 ، 24 أكتوبر- 21 نوفمبر- 12 ، 26 ديسمبر 928؛/2 جانفي 1929 .

(الرحلة الرابعة)

الجولة الجزائرية
1927

الطيب بن عيسى

الجولة الجزائرية

رغبتنا تتجدّد من حين إلى حين فتدعونا إلى زيارة جارتنا الجزائر وشقيقة تونس ، والقيام برحلة كبرى متسعة النطاق تفوق رحلتنا الأولى إطلاعاً الواقعة سنة 1920 ، ثم زيارتنا لعاصمتها مرتين أثناء عام 1923 –قبل سفرنا للمغرب الأقصى وبعد رجوعنا منه– ثم إعادة الزيارة لقسنطينة سنة 1926 –العاصمة الثانية للجزائر– ولكن الموانع والعوارض لا تزال تحول دون تمثيل الرغبة حتى أنها كادت تصدّنا عن السفرات للأصقاع البعيدة بالشرق ، وأخص عذر نقدمه هو المرض الذي اعترانا بقسنطينة عام 1926 فمنعنا من إكمال الرحلة .

ولولا مرورنا من سوق أهراس ، فعنابة ، فقالمة ، لكنا حرمنا حينئذ حتى من جزئيات الاطلاع .

ولتفاهة المعلومات التي استحصلنا عليها في زيارتنا لعمالة قسنطينة ألغينا التعرض لها بتاتاً في جريدتنا وقتئذ . أما زيارتنا هذه المدة فقد عبرنا عنها بجولة لأنها لم تكن كبرى فلم تشمل سوى : قالمة ، الجزائر ، البليدة ، قرواو ، وهران ، مستغانم ، تجديت ، سانت أوجين ، الربية ، كما لم تكن مستفيضة لأن وقتها قصير جداً لا يبلغ العشرة أيام .

بيد أنّ ما ترك كله لا يعدم جلّه ، والى قراء «الجريدة» تفصيل الجولة الأخيرة والملاحظات التي تحوم حولها :

هذه الجولة لا نغبن أهميتها بالنظر إلى كونها ليست بالأولى من نوعها ، وأيضاً لأنها لم تحوجنا إلى المعلومات الأولية لمعرفتنا إياها قبلاً ، بل كان همنا الاستحصال على الإفادات الثانوية وما يوجد من الفروق والمميزات بين زمانين ، غابراً وحاضراً ، من حيث الحركة الفكرية والنهضة القومية . وللمقارنة بين العصرين والموازنة بين الوقتين لزمنا أن نستند على الجزئيات لنبني عليها الكليات . وجزئيات الجولة هي النقط الملفتة لأنظارنا من حيث التطور الجديد الذي أخل على الأوساط ، فغير القديم من العادات أو لم يغيرها فأبقى القديم على قدَمه .

هذا إن أردنا البحث من الناحية الأدبية . أما إن تعرضنا للجهة المادية فنظرياتنا

ستتجه نحو الحركة العمرانية ، وأين مركز الجزائر من التمدن ، أو إن تقدمت البلاد اقتصادياً بسبب ذلك ، فما هو مقدار القسط الذي ناب أبناء البلاد الأصليين من الثورة العامة؟ وإن وجدت فما نسبتها إلى النسبة التي انتفع بها من سواهم؟ فإذن بحثنا سيكون الصورة المكبّرة لحالة الجزائر اليوم وموازنتها مع حالة الأمس .

لقد تغيرت حالة الجزائر تغييراً محسوماً ، فالتمدن الغربي عمّ المدن والقرى ، والنظامات الأوروبية شملت كل شيء ، وأصبح المارُّ بالأنحاء الجزائرية كالمارِّ بالتراب الفرنسي نفسه . وإذا كان هناك فرق فهو بسيط ، ويتضح ذلك من حركة العمران الناتجة عن سهولة المواصلات لكثرة وسائل النقل ولسرعة السيارات والقطارات الرابطة لجميع الجهات ببعضها .

ومن الحركة الفلاحية والصناعية والأشغال العامة يظهر التقدم الاقتصادي وأين وصل به التدرج والنمو ، كل مظاهر النهضة الاقتصادية بادية الوضوح لذي عينين ، لاسيما بالمدن الكبرى مثل الجزائر وقسنطينة ووهران .

بيد أن طوع أيدي الفرنسيين واليهود المتجنسين والغرباء من الأجنبيين ، ونصيب المسلمين بالجزائريين ، ما عدا القليل منهم ، من تلك الثروة الواسعة نصيب الأجير بالنسبة لمالك الأرض ، ومعمّرها ومنتج خيراتها ومستثمر أرباح خلاصتها ، أو قسط الحمال من معلوم رفع السلع بالنسبة للتاجر الكبير أو مناب الشغال من نسبة مال صاحب المعمل العظيم .

وعليه فالثروة الكبرى والحركة العظمى لفائدة غير الجزائريين ، وإن كنا لا نجهل الخيرات التي يتنعم فيها أرباب الثروات الطائلة منهم لأن قياسنا على الغالب إذ النادر لا حكم له .

وإذا راعينا النادر ففي الجزائريين من يخدم الأرض ويربح منها مثل زميله المعمر ، وفيهم التاجر الشهير وصاحب المعمل الكبير .

هذه نظريتنا في الحالة الاقتصادية . ومن جهة النهضة الفكرية فالجزائريون أخذوا في الانتباه بصفة عامة ، وتضاعف نشاطهم عن ذي قبل ، ومهما وجدوا حيلة إلا استغلوها ولا فرصة إلا اغتنموها لتحسين حالتهم الأدبية . والشيء المسرّ هو أن عامتهم يتبعون خطة خاصتهم المفكرة المخلصة . والنابتة الجديدة بالجزائر اقتبست من

آبائها الأوصاف الحميدة ، كالشجاعة والصدق والإخلاص ، ومن الغربيين الحزم والنشاط . وإذا قلنا النابتة فلا نقصد جلها ، بل نخبتها المفكرة فقط في حالها ومآلها .

إذ في الشباب من غَرتّهم زخارف الحياة الدنيا التي يظنونها السعادة عينها ، والنهضة نفسها مع ما فيها من عيوب كشرب الخمر على قارعة الطريق ، والتجاهر بالمنكرات بدعوى الحرية ، والانهماك في المفاسد كالقمار مظنة ربح الدرهم والدينار إلى غير ذلك من الأمور ، وأخصها ارتكاب الفجور ولا موجب يدعوهم سوى التقليد الأعمى .

وإذا كانت الأقوام تسير إما إلى الأمام أو إلى الخلف أو تقف ، فالشعب الجزائري يسير إلى الأمام ببطء .

وعلى كل حال فالأوصاف الحميدة المتأصلة فيه والتي سرت في عروقه سريان الدم في مجاري الشرايين قلّ أن توجد في شعب سواه ، وأخصها رسوخ عقيدتهم وتمكن ثقتهم في الله ومحافظتهم على تقاليدهم وعاداتهم المقتبسة من المدنية الأندلسية غالباً والتي تتفق تماماً مع الحضارة الإسلامية .

والزبدة أن نهضة الجزائريين أشبه شيء بحركة ارتجاج وتنقل مآلها أفيد من حالها ، وحبذا لو يسرع الشعب في سيره لأن تنقلاته بطيئة والعصر الحاضر لا يعيش فيه إلا من وُهب حساً ومعنى ، لأنه عصر بخار ونار وغوص في أعماق البحور ، وطيران في الهواء ، وتسخير للفحم والماء والكهرباء . وفات زمن يسهل العيش فيه لبساطة الطبيعة ، وسهولة الحياة بمعاشرة أناس كالأموات .

وحيث إن النخبة دبت فيها روح الحياة الحقيقية فالأمل وطيد في ظهور عصر جديد .

قالمة:

بلاد جميلة مرتفعة عن سطح الأرض ، وجمالها ليس بموقعها الطبيعي فقط بل حتى من تنظيمات شوارعها وتنويرها بالضوء الكهربائي الذي يظهر مفعوله ليلاً .

وقالمة جاءت في الوسط بين سوق أهراس وقسنطينة ، كما أن المسافة التي بين الحديد التونسية الجزائرية غار الديماو وبين سوق أهراس تعادل التي بين قالمة وقسنطينة

تقريباً .

ولذلك كانت قالمة موجزاً تجارياً معتبراً من جميع الجهات التي حولها خصوصاً يوم السوق : الاثنين .

وقالمة بقدر حركتها التجارية تقلُّ حركتها الأدبية فليس بها جمعيات تذكر أو مؤسسات علمية ، ما عدا النادي الفرنساوي العربي الذي يؤمّه أعيان البلاد ووجهاؤها ، ويجتمعون مع بعضهم في أوقات فراغهم يتذاكرون في شؤونهم الخاصة ، وقليلاً ما يطرقون المسائل العامة وحبذا لو يهتم علماؤهم وأدباؤهم بالمباحث الاجتماعية وإعطائها ما تستحق من العناية .

الجزائر:

عاصمة الولاية الجزائرية بل حاضرة الشمال الإفريقي بالنسبة إلى النظرية السياسية الفرنسوية ، لأن الجزائر مستعمرة واقعة بين مملكتيْ حماية ، لنظر فرانسا -تونس شرقاً والمغرب الأقصى غرباً- ، والجزائر أجمل بلاد من الولاية لموقعها الطبيعي بين بحر وجبل ، وأرضها تصعد درجة بعد درجة من الشمال إلى الجنوب بتناسب زاده التنظيم حُسْناً على حُسْن .

والجزائر بلاد حركة عظمى براً وبحراً وهي مظهر من مظاهر العمران الأوروبي . أما نظافة البلاد خصوصاً الأحياء فحدّث عنها ولا حرج ، وإن كانت الأحياء العربية جهة الجبل لم تبلغ من النظافة والتنظيم .

وأحواز الجزائر مرتبطة بها وتكاد بناءاتها تكون متلاصقة ببعضها لقلة الخراب وكثرة العمران ، فمن الجزائر إلى «آغة» إلى «الحراش» إلى «ميزون كاري» . ومن الجزائر إلى «سانت أوجين» إلى «القليعة» صارت بلدانها كلها كتكملة للعاصمة لا تختلف عنها إلا في الاعتبار والتقسيمات الإدارية للمناطق البلدية .

وبأم المدن هذه نهضة سياسية لا توجد في سواها ، وحركة أدبية تماثل الموجودة بقسنطينة ، ولكن العنصر الوطني أصبح يساوي ثلث السكان أو دون الثلث . وبالجزائر كما بوهران يكثر عدد الأجانب من الجالية الإسبانية كنموِّ إخوانهم اللاتينيين الإيطاليين بالعاصمة التونسية .

وبالجزائر بعض المدارس العليا لتخريج الحقوقيين والحكام الشرعيين ، وتجتمع بالجزائر النيابة المالية المختلطة من فرنسوين وجزائريين «ديليقَاسيُونْ فينَانْسْ» وهي التي تعادل «المجلس الكبير»[1] عندنا للنظر في اليزان العام .

وأحسن مظهر يدل على رقي ذوق الجزائري وكمال استعداده إلى الأخذ بأسباب النهوض هو تأسيسه لناد ضخم : «نادي الترقي» ، ولا أبالغ إن قلت أَنْ لا نظير له بالشمال الإفريقي على الإطلاق ، وإن وجد فيكون نادياً فرنسوياً لا وطنياً .

نادي الترقي يمثل تنسيقاً وتنظيماً من أعلى طراز ، وهو فخر الشبيبة ومظهر قابليتها للصعود إلى أوج التقدم ، لأن النادي ضم نخبة النابتة وأهلها للتضامن على إحياء لغة البلاد بالمحاضرات والمسامرات التي تلقى به من عظماء الرجال في المواضع المختلفة . ومنذ أمد قريب كان الجزائري يستبعد الإقدام على الخطابة بلغة الضاد ارتجالاً ، واليوم أصبح يخطب ويحاضر في محتشد عظيم بلا كلفة وبأقل تلعثم . وزاد في قيمة النادي الإقبال عليه ومد مشروعه بيد المساعدة المادية والأدبية أي بالمال والعلم أون حي عمراني بالجزائر وهو «ساحة الحكومة» ، حيث مجتمع الطرقات وخطوط الترامواِيات ، ومراكز السيارات مع الإشراف على المرسى البحرية والمناظر العمومية .

ولحسن منظر النادي الداخلي واتساعه ، أصبحت الولائم والحفلات الكبرى كلها تقام فيه من حين إلى حين .

البليدة:

هي البلاد العربية الآهلة بالمسلمين والذي جملّها وزادها اعتباراً هو وجود المياه الكثيرة خصوصاً العين المجلوبة من «سيدي الكبير» ، وبساحة السلاح «بْلاَسْ دَارم» مصب لمنبع كبير من منابع العين وهذه الساحة واقعة وسط المدينة .

ومنظر المنبع لا أجمل منه ، حيث ينفجر حول نخلة رأسها فوق سقف لمقعد معد لجوقات الموسيقى تضرب فيه أيام الأحد والحفلات الرسمية ، والنخلة مغروسة وسط القاعة ، والقاعة مزخرفة على أتم تنسيق ويحيط بها بستان صغير يسقى من مياه

(1) مجلس النواب في تونس الذي كان يطلق عليه في فترة الاحتلال (المجلس الكبير) .

العين المتدفقة من جميع الجوانب .

والبليدة تبعد عن الجزائر نحو 60 كيلومتراً وحركتها الاقتصادية حسنة نوعاً ما .
وبالبليدة متنزه عمومي على ضفة الوادي مُنسّق الأشجار ، ومُنّمق الأزهار .

وأما النهضة الأدبية فتكاد تكون ميتة ولا جمعيات تلمّ شتات البليدة ما عدا بعض جمعيات رياضية .

وأهل البليدة يغلب عليهم التديُّن حتى أن الاستعماريين يعبرون عن البليدة ببلاد التعصب الإسلامي لتصلّب البليديين في أمور الدين .

قرْوَاو:

قرية عربية بحتة -لا أوروبي واحد أو يهودي بها- من أكبر قرى القطر الجزائري ، قرية في طريق البليدة وقبل الوصول إليها بنحو ثمانية كيلومتراً تقريباً من «بني مراد» ، وهذه الدشرة واقعة في طريق الجزائر والبليدة .

وقرواو هذه تسمى باسم ضريح الشيخ محمد بن عيسى قرواو جد صاحب هذه الجريدة ، وهذا السبب الذي دعاني لزيارتها ، وما زيارتي لها بالأولى فقد زرتها في جويلية سنة 1920 . وجدي هذا من نسل ابن عيسى الدفين بجهة بسكرة والذي استوطن حفيده بقرواو ومات بها لنحو قرن .

ومحمد قرواو ترك محمداً -جدي- الذي ازداد له ولد بتونس دعاه محمد أيضاً ؛ أبي . وأبي تركني وأخي أحمد الذي التحق به بعد بضع سنين وبقيت أنا فريداً ولم يبق سواي ذَكَرٌ من الأصل ولا من الفرع .

على أن عائلة بن عيسى قد فارق أعقابها قَرْوَاو ، فجدي ولد ونشأ بالجزائر

العاصمة ، وقضى شطراً من عمره بتونس ومات بها .

أما ذرية الشيخ بن عيسى قرْوَاو من الإناث وأبناء الإناث فهم كثيرون بقرواو والجزائر وتونس ، وقرية قرواو تابعة لحكم «الصمعة» ، «كومين الصمعة» ، ناحية بوفارنك .

وأراضي قرْوَاو أخصب أراضي الولاية الجزائرية على الإطلاق ، وهي بنوع خاص صالحة لغراسة الكروم : العنب ، وزراعة الدُّخَان[1] ، وما ذلك إلاّ لغزارة مياهها المتدفِّقة كالسيل العرَمْوم .

ومع هذا فإن الاستعمار امتدّ إلى حال قرواو وأحاط بها ولم ينشب أظفاره بها . وذلك من نتائج كدّ القرْوَاويّين ، وحزمهم ، وإقبالهم على خدمة أراضيهم بأنفسهم واتّكالهم على الله في نجاح مساعيهم .

«جريدة الوزير»[2]

---

(1) التبغ .

(2) 20 سبتمبر /04 أكتوبر 1928 .

(الرحلة الخامسة)

جولة من التلال إلى الرمال
1932

حمزة بوكوشة

جولة من التلال إلى الرمال

لقراء «الوزير»[1] الأعزاء حق على مديره ومحرره وكتّابه أن يطلعوهم على ما يشاهدونه في الحل والترحال ، ولقد عقدت العزم على القيام بهذا الواجب ، ولكن نسج على الخاطر ذهول ، حتى اتصلت برسالة خاصة من صديقي الحميم ، شاعر الشباب الأستاذ محمود بورقيبة[2] يقترح عليّ فيها موافاة قراء الوزير بمشاهداتي في جولتي الأخيرة ، وبما أني قد تلكأت في أداء هذا الواجب فلم يسعني إلا تداركه بقضائه بعد فواته ، وقد قيل :

وعَليَّ أن أقضي صلاتي بعد ما
فاتَتْ إذا لم آتها في وقتها

والى القراء أنباء هذه الجولة:

في 15 من شهر جمادى الأولى المنصرم ، غادرت بلدة «دلّس» تلك البلدة الهادئة المطمئنة التي أباشر مهنة التعليم بمدرسة «الإصلاح» الكائنة بها والتي أسسها الأهالي سنة 1851هـ .

وبلدة دلّس مرسى بحرية صغرى ، تقع شرق عاصمة الجزائر ، وتبعد عنها 108 أميال ، وتصل السيارات والقطار إليها . وهي فقيرة من جهة المحصولات . ومحصولاتها القمح والشعير ، والتين والزيتون .

ولأهلها ولوع بصناعة الأحذية على اختلاف أشكالها . وبالبلدة مدرسة حكومية كبرى تعلّم الصناعة من حدادة ونجارة ، ولا تقبل بين جدارنها إلا من كان محرزاً على الشهادة الابتدائية للغة الفرنسية . وبها مأكل التلاميذ وملبسهم ، ومبيتهم مجاناً . ومدة إقامة التلميذ الأهلي بها عامان . أما الأوروبي فثلاث سنوات .

وبحكم الطبيعة يتقن أهلها السباحة وصيد السمك الذي اتخذه بعضهم حرفة

---

(1) صدرت جريدة (الوزير) التونسية سنة 1920

(2) محمود بورقيبة (1909 – 1966) شاعر تونسي امتاز بشعره الغنائي ساهم في تحرير عدد من الصحف ، كانت له علاقة وطيدة بصاحب الرحلة .

تنتج ما به قَوام معتاد حاله .

وجلّ أهلها عرب وغالب عاداتهم عربية ، والتعليم الابتدائي للغة الفرنسية كان أن يكون عاماً بينهم . وبحكم المجاورة أخذت تسري سرياناً ضئيلاً المدنية الخلابة من عاصمة الجزائر ، تلك المدنية التي لم تنجُ منها كبريات العواصم الإسلامية . وما تلك المدنية إلا ترفُّه في اللباس ، وغلاء في المهور حتى يُضطر الفقراء إلى تقليد الغني .

وأهل دلّس من أكثر الناس انصياعاً للحق واتباعاً . ومن أبعد أهل القطر الجزائري عن البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، كما يشاهده الرائي في مآتمهم وأفراحهم . وهم يلبُّون دعوة الحق إذا دعا إليه داع ، وينتفعون بالذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

هذا حكم الأغلبية الساحقة . أما الأقلية فقد قالت العرب : «في كلّ واد أثر من ثَعْلَبَهْ» . وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] .

غادرت البلدة دلّس الأمينة موليًا وجهي شطر بسكرة ووادي سوف ، فعرجت على العاصمة الجزائر . والجزائر وإن كانت أشهر من أن تعرف لكنها في العامين الأخيرين حدث بها انقلاب لم يكن في الحسبان . حيث ظهرت العاصمة بمظهر ديني لم يعهد فيها من قبل ، وذلك منذ حلّ بها الداعية الإسلامي العظيم الأستاذ الطيب العقبي فأثر في الأمة بدروسه المعطلة الآن ، وبمحاضراته التي يلقيها على الجماهير عشية يوم الأحد من كل أسبوع فانتفع به خلق كثير في العاصمة وضواحيها ، واتبعوا الصلاة ، وتركوا الشهوات .

وبالجزائر مدرستان أهليتان . وهما مدرسة «الشبيبة» ومدرسة «السلام» وبها «نادي الترقي» الذي أسسته نخبة مفكرة كان قطب رحاها الأستاذ أحمد توفيق المدني[2] . وبها ناد آخر أسسه رئيس الجماعة المنشقين عن جمعية العلماء المسلمين وهو يسمى «نادي الأخوة» .

---

(1) الآية 123 ، سورة الأنعام

(2) أحمد توفيق المدني ، من أصول جزائرية استوطن أهله بتونس حيث ولد في سنة 1899 ودرس بالزيتونة ، وانتمى إلى الحركة الوطنية وأصبح عضواً في الحزب الدستوري التونسي في العشرينات ، وقد نفته فرنسا إلى الجزائر سنة 1925 بسبب نشاطه السياسي .

بوسعادة:

وفي اليوم السابع عشر من جمادى الأولى توجهت من الجزائر رأساً إلى (بوسعادة) فأقمت بها يوماً وليلة . وبوسعادة بلدة جميلة تزدان ببساتين النخل والأشجار المثمرة ، وقد زرت بها ضريح المسلماني ناصر الدين ديني ، الرسام الشهير صاحب كتاب «الحج إلى بيت الله الحرام» .

وفي بوسعادة جمعية خيرية اسمها «الهداية» أسست مكتباً قرآنياً ، ولما يفتح لخلاف نشب بين بعض الأعضاء . وهو شيء قلما يسلم منه مشروع خيري إسلامي في طور التكوين .

وبينما أنا جالس بمقهى عربي لدى إدارة البريد ببوسعادة سمعت جماعة يتحدثون بحماس ، بين أخذ ورد . وكان موضوع حديثهم الوفد الجزائري ، وما سافر لأجله . وهم بين مادح وقادح . وأخيراً أرست محادثتهم على أن الغاية التي سعى إليها الوفد غاية شريفة ، لكنهم لا يعلقون عليه آمالاً لوجود بعض الدخلاء الذين أثبتت التجارب أن مسعاهم لأغراض خاصة . وهؤلاء كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كما تشاء . . . ولو كان الوفد خالصاً من الشوائب لحمد سراه .

بسكرة:

وبعد زوال اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور توجهت إلى بسكرة عاصمة الجريد الجزائري ، وهي بلدة طيبة المناخ يؤمها السواحون شتاء وربيعاً .

وهي مركز تجاري عظيم ، وبها مدرسة «الإخاء» الأهلية التي أسست سنة 1350هـ . وعلى أنقاض مكتب «العرفان» ، والفضل في إنشاء ذلك المكتب بتلك الأصقاع للجنة التحضيرية التي شرعت في تأسيس جمعية خيرية لنشر التعليم الابتدائي ، وكان من بين تلك اللجنة الأستاذ الزاهري [1] ، فعرقلها المعرقلون وكادت أن تصبح أثراً بعد عين . . . فأسس إذ ذاك جماعة الإباضية مكتباً تحت اسم

---

(1) هو الشيخ محمد السعيد الزاهري (1899 – 1956) أحد الشعراء البارزين ممن درسوا بالزيتونة وساهموا في الحركة الإصلاحية بالجزائر حيث أنشأ عدداً من الصحف .

«العرفان» وبذل الأستاذ محمد خير الدين، والسيد علي دباش جهوداً عظيمة لبث التآخي والوداد بين قاطبة السكان على اختلاف المذاهب والبلدان، فتأسست جمعية كبرى تحت اسم «الإخاء» اشترك فيها الإباضية والمالكية، وقد فتحت مدرسة الإخاء عام 1350هـ.

وفي بسكرة أيضاً ناد يسمى نادي «الأخوة» وهو لا يزال حديث التأسيس. وثمة خلاف بين أعضائه كاد أن يفضي بهم إلى انحلال جمعية النادي، لولا أن العقلاء تداركوا إذّاك فحسموا مادة الخلاف، بإعفاء رئيس النادي وإسناد رئاسته لرئيس جمعية الإخاء.

وببسكرة جريدة صغرى تبرز باللسان الفرنسي يصدرها أحد الأهالي المتجنسين وموضوعها الانتقاد اللاذع على النواب، وبعض الحكام، وكثيراً ما تقرن الحوادث بالصور.

وبعدما قضيت ببسكرة النخيل ثلاثة ليالي (كذا) بأيامها، ولّيت وجهي شطر «وادي سوف»، ونظراً لشدة القيظ إذ ذاك امتطينا السيارة من بسكرة ليلاً فأخذت تنساب انسياب صل[1] إلى جُحره... ولم تكتحل أجفاننا بالكرى تلك الليلة إلا غرارة بمنتصف الطريق. ثم استأنفنا السير، والسيارة كسفينة تتقاذفها الأمواج لأن الطريق رملية وكثيرة الانخفاض والارتفاع وبها بعض التعاريج.

وبينما السيارة تطفو وترسب بذلك «المحيط الرملي» إذا به يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود. فرأينا غابة النخيل على صفحة كسراب بقيعة. حتى بعثت الغزالة أشعتها فحالت بيننا وبين منظرنا الجميل. وما كدنا نراه حتى أخذنا نتقصى أطرافه.

وأول أرض منه فهي مغرسة تسمى «هبة»، وهذه المغرسة لأحد شيوخ الطريقة التجانية. وقد امتاز هذا الشيخ بمساعدة عابري السبيل على اختلاف حيثّياتهم. وإغاثة أصحاب السيارات عند حدوث أي حادث لسياراتهم، ولو كانوا على بعد من مغرسته.

---

(1) أفعوان.

وعندما تجاوزنا هبة دخلنا بلدة «قمار» وهي تبعد عن الوادي 18 ميلاً ، وبقمار حركة علمية لتعليم الشبان والشيب ، قضى عليها أعداء العلم في مهدها خوفاً من شروق شمس الحقيقة فتكشف ستارهم ، وقد استعانوا بسلطة الحكومة في إخفائها ، ولكن أنّى لهم القضاء عليها واقتلاعها من القلوب بعدما أتت هذه الحركة أكلها ضعفين!!

وقطب الحركة الإصلاحية بقمار هو الأستاذ عمار الأزعر الذي أوذي في الله وعزّزه أفاضل القرية وقاضيها ودائرته وقائدها ، وما ضعفوا وما استكانوا .

وقد كان السفور ببلدة قمار منتشراً بأتمّ معناه فقاومته هذه الفئة القليلة حتى اقتلعته من جذوره : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [1] . فلقيت في سبيلها مصادمات عنيفة من صوفية العصر . . . وقد لمح لها بأبسط مما هنا صاحب كتاب «الإسلام في حاجة إلى رعاية وتبشير» [2]

ورواج الصحافة العربية بهذه البلدة أكثر منها ببلدان سوف ، وبالأخص بلدة الوادي التي ابتلاها الله بنفر ممن ينفرون الناس جهدهم من تناول الصحافة العربية على اختلاف مبادئها ، ويتلون على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشتَرِي لَهوَ الحَدِيثِ﴾ [3] . وهذا هو التفسير بالرأي عياذا بالله منه!

ولقد أنجبت بلدة قمار هذه في الجيل السالف عالماً جليلاً يحق للجزائر أن تفاخر به وهو خلفة بن حسن قماري ناظم مختصر خليل ، وله آثار أخرى من تعاليق وغيرها ، وطرف وملح وفتاو تدل على حرية الفكر والاستدلال . وسأفرد الكلام على حياة هذا الرجل بنشرة مستقلة إن اقتضى الحال .

وعندما تجاوزنا قمارا اعترضتنا بلدة «أكوينين» ، وهي تمتاز عن بلدان سوف بجودة مصنوعاتها الصوفية والحريرية . وهي بمحكمة الوادي الشرعية . ومنها تسوّرنا البورج المشيّدة من بلدة الوادي :

---

(1) الآية 249 ، سورة البقرة .

(2) من تأليف الشيخ السعيد الزاهري ، نشر بدمشق في الثلاثينات .

(3) الآية 6 ، سورة لقمان .

بلد صحِبتُ به الشبيبة والصِّبا
ولبست ثوبَ العيش ، وهو جديدُ
فإذا تمثَّل في الضمير رأيتَه ،
وعليه أغصان الشباب تمِيد

وبلدة الوادي هي أمُّ بلدان سوف لوجود مركز الحكومة بها . وإنها حديثة العمارة بالنسبة للقرى التي حولها ، وهي شديدة التمسُّك بالحجاب .

«جريدة الوزير»[1]

(1) سنة 1932 .

ملحق

كلمة في الكتاب

الدكتور محمد صالح الجابري غني عن التعريف . كنت اطلعت ، من بعيد على بعض كتاباته في الصحف . وعندما عينت سفيراً للجزائر في تونس سنة 1988 ، أرسل لي كتابه «النشاط العلمي للمهاجرين الجزائريين بتونس» وبعد ذلك عرفته عن قرب ، والتقيت معه عدة مرات ، صحبة مجموعة من الكتاب والأدباء ، مثل الأستاذ العروسي المطوي الذي درست عليه الحروب الصليبية في آخر عهدي بالزيتونة وأول عهده بالتدريس فيها ، ومثل الجيلاني بن الحاج يحيى الذي ينتمي إلى جيلي والذي عرفته منذ الأربعينات ، زمن الدراسة في تونس ، والذي كانت له اهتمامات أدبية منذ صغره ، إذ أصدر نشرة ، نسيت اسمها ، لكن أذكر أنه طلب مني أن أشارك فيها فكتبت له مقالاً عن آخر بني سراج عنوانه «بطولة تحتضر» .

وعندما انتخبت مديراً عاماً للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ديسمبر 1992 ، وجدت د . الجابري ضمن الفريق الذي كان مسؤولاً عن إدارة برامج الثقافة والاتصال .

وعندما رشح إلى إدارتها ، اخترته من بين عدد من المرشحين .

وقد لفت انتباهي منذ ذلك الحين أنه يواظب على الكتابة في الصحف ، دون أن يكون ذلك على حساب عمله في المنظمة . وقد كنت أتصور أن كتاباته الصحفية سوف تختفي أو تقل ، بعد أن تسلم مهام إدارة الثقافة والاتصال .

لكن شيئاً من ذلك لم يكن . فيكف كان يوفق في النهوض بواجباته المهنية العديدة في إدارة برامج الثقافة والاتصال ، والمواظبة على الكتابة الصحفية؟ سؤال حيرني وما يزال .

وهاهو اليوم يطلعني على إنجاز له جديد لم يدفع به بعد إلى المطبعة ، عنوانه «رحلات جزائرية» ويطلب أن أكتب له تقديماً .

أول ما جذبني في الكتاب هو عنوانه .

وعندما طالعته بتمعن ، وجدته يعكس صورة حية عن اهتمام الصحافة التونسية ، خلال الثلث الأول من القرن العشرين ، بالجزائر والكتابة عن الرحلات إليها .

في هذا السياق أود أن أشير إلى ظاهرة تكاد تكون مفقودة عندنا في الجزائر -وربما في عموم المغرب العربي- وهي كتابة المذكرات سواء كانت تتصل بالرحلات ، أو بتسجيل الوقائع اليومية ، عادية وغير عادية .

في حين أن هذه الظاهرة متجذرة في الغرب ، والى حد كبير في المشرق العربي .

وقد دفعني اهتمامي بالتاريخ والمؤرخين أن اشتريت ذات يوم مذكرات Jules Michelet المعروف ، متصوراً ، أنها تكون كلها متصلة بالتاريخ . لكن وجدت أنه سجل فيها كل شيء . فقد لفت نظري أنه كتب في يوم معين جملة واحدة مفادها أن زوجته «ذهبت إلى الحلاق» .

ولا تخفي أهمية كتابة المذكرات ، خصوصاً وأن كثيراً من الوقائع التي يمكن تسجيلها ، تبدو لنا في إبان حدوثها غير ذات أهمية ولا تستحق أن تستأثر ببعض وقتنا أو بشيء من حبر القلم ، في حين أن بعضها ، يكون على غاية من الأهمية عندما نطلع عليه بعد زمن يقصر أو يطول .

أذكر أن الأستاذ جاك فوني -وكان مديراً آنذاك لصحيفة لوموند- زار الجزائر في بداية السبعينات من القرن الماضي . أثناء الغداء الذي جمعنا معه ، تعرض بعض الحاضرين لعادة كتابة المذكرات ، سواء كانت رحلات ، أو ذكريات خاصة . سألته عن رأيه في الموضوع فقال إن كتابة المذكرات لها أهمية كبيرة ، لأنها -مع مرور الوقت- تساعدنا على أن نتبين بعضاً من ملامح التاريخ المعاش ، التي قد تخفى أهميتها عن الأعين إبان حدوثها . ولكي يبرهن على صحة رأيه استشهد بحادثة معينة ، تتلخص في أنه كلف ، كصحافي ، بتغطية الندوة الصحفية التي عقدها الجنرال دي غول عام 1946م ، والتي أعلن فيها استقالته من رئاسة الحكومة ، احتجاجاً على استمرار ممارسات سياسية حالت دون تقبل الإصلاحات التي كان ينادي بها .

أثناء الندوة سأله أحد الحاضرين : «هل ينوي أن يعود إلى الحياة السياسية لاحقاً» . فأجابه الجنرال دي غول : «كلا . لن أعود للحياة السياسية إلا في حالة

واحدة ، عندما تضطرب فرنسا وتهتز . . وفرنسا لن تضطرب إلا للجزائر . .».

ثم أردف جاك فوني : «لم أعر كبير اهتمام آنذاك لما قاله . لكن سجلته رغم ذلك . . وقد برهنت الأحداث على صحة مقولته إذ عاد إلى الحكم في ماي 1958م ، بسبب تطورات في الحياة الداخلية الفرنسية . تسببت فيها الحرب الجزائرية :» .

هنا تذكرت أن من بين الشخصيات التونسية القلائل فيما أعرف التي كانت تسجل كل ما تشاهده ، المرحوم الشيخ المختار بن محمود ، أحد أعلام جامع الزيتونة فقد لاحظت ، أثناء إحدى زياراته لقسنطينة ومدينة الجزائر العاصمة ، أنه كان يحرص على تسجيل كل شيء ، في كراس صغير لم يكن يفارقه .

فماذا فعل الله بتلك المذكرات؟ لست أشك في أن نشرها سوف يعرض لنا صورة حية عن ذلك العصر ، فقد كان الشيخ المختار بن محمود طلعة ، يريد أن يعرف كل شيء . وقد بلغ به الفضول ، في إحدى زياراته للجزائر ، أن يسأل عن بعض الأشياء الغريبة التي لا تستلفت النظر .

عندما شرعت في قراءة مخطوطة ، «رحلات جزائرية» وجدتها ، رغم صفحاتها المحدودة غنية بالمعلومات عن بعض شخصيات من الجزائر ، وعن بعض معالم مدنها ، في نفس الوقت الذي تلقي فيه بعضاً من الأضواء على الحياة في عهد يمتد من بدايات القرن العشرين بدايات الثلاثينيات منه .

وتثير قراءة هذا الكتاب عدداً من الملاحظات ، وهو أن عدداً من مثقفي العربية في ذلك العهد ، كان يحرص على كتابة التاريخ الهجري . وقد كانت عادة جارية فيما يبدو ، فقد لاحظت أن والدي كان يستعمل التاريخ الهجري ، وإن كان أحياناً يردفه بما يقابله من التاريخ الميلادي .

ويستطيع القارئ أن يستشف في مطالعة ما كتبه كل من محمد الخضر بن الحسين ، وأحمد حسين المهيري ، وسعيد أبي بكر ، والطيب بن عيسى وحمزة بوكوشة ، الميول الفكرية لأصحابها .

فالشيخ محمد الخضر حسين ، إذ يذكر لقاءه بالشيخ حمدان بن لونيسي في قسنطينة ، والشيوخ عبد القادر المجاوي وعبد الحليم بن سماية ومحمد بن شنب ، يذكر أسماء رجال عرفوا كلهم أو جلهم بأفكارهم الإصلاحية في مجال الدين

والسياسة . فالشيخ عبد الحليم بن سماية مثلاً كان من بين الذين استقبلوا الشيخ محمد عبده عندما زار الجزائر والشيخ حمدان بن لونيس -وهو أحد شيوخ عبد الحميد بن باديس ، كان يدعو إلى مقاطعة الإدارةالفرنسية . وكان قد أوصى تلميذه ابن باديس بأن لا ينخرط في أي سلك إداري فرنسي .

وقد عمل ابن باديس بوصية أستاذه . ومعروف أن الشيخ حمدان ابن لونيس فضّل في النهاية ، أن يهاجر إلى المدينة المنورة ، حتى لا يظل تحت حكم الفرنسيين .

ويتميز الفصل الذي كتبه الخضر بن الحسين ، بأنه يسلط الضوء على اهتمامات من يعتبرون علماء في ذلك العهد ، وهي اهتمامات دينية ، وفقهية في معظم الأحيان .

ولست أشك في أن عدداً من الباحثين سوف يدفعهم قراءة هذه الرحلات إلى استكشاف الشخصيات التي ذكرها الخضر ابن الحسين ، مثل عبد الحليم بن سماية ومحمد بن شنب ، وعبد القادر المجاوي ، أو التي تعرض لها أحمد حسين المهيري ، مثل الأمير خالد الذي التقى به في عين البيضاء ومثل حوّاس الذي عرفه في تبسة . ومثل الأمين العمودي والطيب العقبي ومحمد العيد آل خليفة الذي اجتمع بهم سعيد أبو بكر في مدينة بسكرة ، والصادق بوذراع الذي عرفه في تبسة .

وتجدر الإشارة إلى أن الصادق بوذراع هذا كان من شخصيات تبسة المرموقين ، وكان تاجراً كبيراً ، نذر حياته لخدمة الإصلاح الديني والسياسي ، فقد كان من أنصار الأمير خالد ومن الذين احتضنوه وكان من المتحمسين للحركة الوطنية سواء عبر صفتها الإصلاحية الدينية التي بشرت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، أو عبر صفتها السياسية التي دشنها الأمير خالد ، وأوصلها حزب الشعب برعاية مصالي الحاج .

أما الأمين العمودي فقد كان شاعراً خفيف الظل ، وكان يتقن اللغتين العربية والفرنسية ، وقد تولى الأمانة العامة لجمعية العلماء عندما تأسست عام 1931، وأصدر بعد ذلك صحيفة بالفرنسية ، هي «لاديفانس» La defense التي كانت لسان جمعية العلماء باللغة الفرنسية ، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً ، في ظل حركة المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي تأسس في 1936 وأصبحت تعبر عن أكثر تيارات هذا المؤتمر وطنية .

ومن الجدير بالذكر أن هناك إشارات مهمة عن الإنتاج الزراعي ، مثل المساحات

الزراعية ، وعدد أشجار النخيل في بسكرة «مائة وعشرون ألف نخلة في العشرينيات» وسعر كيلو الخروف وليتر الزيت في بداية العشرينيات ، بمدينة عين البيضاء ، ونوعية الفواكه التي تنتجها باتنة ، وكونها «أكبر حجماً من غلال المملكة التونسية» . وكيف أن البطيخة الواحدة في سيدي عقبة قد يصل وزنها إلى «التسعين كيلو» والخصة إلى «ثلاثة أرطال» ، وقد يبلغ طول حبة الفول الأخضر «خمس وستين سنتيماً» .

وبالإضافة لذلك نجد وصفاً دقيقاً لمدن تبسة وعين البيضاء وباتنة وبسكرة والعاصمة والبليدة الخ . . .

على أن أهم الإشارات الجديرة بالتسجيل فهي تلك التي تتعلق بالحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية .

فهذه الرحلات تعطينا مثلاً صورة عن نفوذ الطرق الصوفية وعن تقاليد «الزردة» التي تقام تقرباً لهذا الولي أو ذاك .

فالزردة لها وقتان : فصل الخريف عند الاستعداد للحرث ، وفصل الربيع عند انتظار المحصول . ويقصد التقرب بها وبذباتحها ومأكولاتها إلى الولي الذي تقام قرب ضريحه ، حتى يغيثهم الولي بالأمطار في فصل الخريف ، ويصون غلتهم في الربيع فلا تتلفها الجوائح أو الأمطار التي يصحبها البرد مثلاً قبل موسم الحصاد .

وعن نفوذ أصحاب الطرق ، يلاحظ سعيد أبو بكر أن القرابين التي تقدم لهم «جعلت شيوخ الطرق أغنياء والسواد الأعظم في فقر مدقع» ثم يضيف أن أعظم دليل على ذلك ما يردده الناس من أحد المقدمين خلف عند موته «ما يزيد عن عشرة ملايين فرنك في البنوك» ، وذلك في النصف الثاني من العشرينيات «المقدم هو الذي يمثل شيخ الطريقة وينوب عنه في جمع الهبات التي تقدم للشيخ» . ويصور سعيد بوبكر مدى اعتقاد الناس السذج في أضرحة الأولياء والصالحين عندما يسجل ما شاهده من ارتماء رجل على ضريح يقبله بحرارة . وعندما لامه الكاتب على ما فعل قال له : «أحرقتم لنا الزيتونة فهل تريدون أن تهدموا الجامع أيضاً» . وعندما سأل عن موضوع الزيتونة قال : «هي زيتونة قديمة جداً وولية» تزورها العاقر فتلد ، ويزورها المريض فيشفى ، وعندما أحرقوها «بقيت النار تشتعل فيها ما يقرب من أسبوع» .

ويسجل نفس الكاتب أن عدوى الاعتقاد في أولياء الله الصالحين انتقلت إلى

بعض الأوروبيين . فهذا أحدهم ، وهو «جان مانكا» يزور «سيدي بوحديد» قرب عنابة ، ويذبح ديكاً ضخماً ، كما يفعل الناس وعندما لامه بعضهم على ذلك قرر أن يتوقف عن زيارة «سيدي بوحديد» . حتى إذا جاء موعد الزيارة لم يفعل ، فسقط مريضاً ولم يقم إلا بعد أن كلف من يذبح الديك باسمه بين جدران «سيد بوحديد» .

وقد ربط سعيد أبو بكر بين النظافة التي لاحظها في شوارع إحدى مدن الشرق الجزائري ، وبين النواب البلديين الذين لا يتم تعيينهم إدارياً ، ولكن بواسطة الانتخابات .

ويسجل هذا الكاتب الشاعر ، ظاهرة التفرنس التي تبدو واضحة في أحاديث الناس باللغة الفرنسية ، وفي الإقبال على شرب الخمر دون أن «يحملهم السكر إلى عمل ما يراه التونسيون كلهم عقب كل مجلس من هذا القبيل» مما يدل على أن العناصر التي شاهدها كانت مدمنة .

كما يلاحظ أن «الكتابة والقراءة العربية قد أصبحتا مفقودتين» في مدينة عنابة .

ويسجل أنه شاهد في عين البيضاء آنسة جزائرية تعمل في مركز البريد ، متجنسة وترفض النطق بالعربية مع الزبائن الذين يجهلون الفرنسية اسمها «مدموازيل بلقاسم» .

وتجدر الإشارة إلى أن الطيب بن عيسى قد تنبأ باقتراب موعد النهضة في الجزائر .

إن هذه الرحلات الجزائرية غنية بالصور التي تعكس لنا واقع الحياة آنذاك . فلم يفت أحدهم أن سجل مدى صمود مدينة قسنطينة في وجه التفرنس ، بأن تمسكت بالتقاليد المحافظة حتى أنه لم يشاهد امرأة واحدة في قسنطينة . في الوقت الذي نقرأ في القسم الأخير من الكتاب أن نسبة السكان الجزائريين قد تقلصت في العاصمة فأصبحت لا تتجاوز الثلث بالنسبة للأوروبيين واليهود .

وهناك تصوير دقيق لأعوان البوليس السري الذي يتتبعون حركات كل أجنبي عن البلدة ، وقد استمر هذا التقليد حتى الأربعينيات والخمسينيات . فأنا أذكر أن أحد زملاء الدراسة ، كان قد راسلني في الصيف ، ليطلب مني أن أزوره في بلدته أو يزورني في بلدتي ، وكان مهتماً بالسياسة منذ صغره . فأجبته بأن نلتقي في قسنطينة لأن اللقاء عندي أو عنده يجلب الأنظار ويجلب الشبهة .

وعندما اجتمعنا بقسنطينة ، قال لي : «إن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر» . كان ذلك في 1949م .

وعلى كر اهتمام طلاب وشباب ذلك العهد بالسياسة ، يحضرني ردود الفعل التي حدثت من جراء تزوير انتخابات المجلس الجزائري ، في بداية الخمسينيات . كانت الأحزاب السياسية الموجودة قد اتفقت على أن لا تتحارب ، وأن تكون جبهة واحدة ، يرأسها الشهيد الشيخ العربي التبسي .

كان ذلك الاتفاق قد فجر آمالاً واسعة لدى النخب المثقفة والجماهير العريضة على السواء .

وأذكر أنه ما كادت تمر ساعة أو ساعتان على بدء عمليات الاقتراع في المداشر والقرى التي كانت قريبة من البلدة التي كنت أقيم بها ، حتى رجع ممثلو الأحزاب الوطنية في مكاتب الاقتراع ساخطين ، يخبرون الناس بأن السلطات الفرنسية منعت الناخبين من الاقتراب من صناديق الاقتراع التي ملأتها ببطاقات المرشح الحكومي .

آنذاك كتبت رسالة إلى أحد زملاء الدراسة ، أصف له فيها ما حدث ، وأعبر عن مدى التشاؤم واليأس الذي تمكن مني .

وما هي إلا سنوات حتى اندلعت ثورة نوفمبر 1954م ، وكان كل من الصديقين ، اللذين جرت بيني وبينهما مراسلات في 1949م و1950م أو 1951م من بين رجالها . ولو أن الظروف سمحت بأن أحتفظ برسالة 1949م وبنسخة من التي وجهتها في 1950م أو 1951م ، لكنّا قد أخذنا صورة حية عما يفكر فيه بعض طلاب وشباب الجزائر في تلك الحقبة .

وهذا ما يعود بنا إلى ما قلته في مطلع هذه الكلمة ، من عدم وجود تقليد لدينا نحن الجزائريين بشأن تسجيل المذكرات والذكريات .

ومهما يكن من شيء فقد أتاح لنا د . محمد صالح الجابري رحلة ممتعة إلى الماضي ، تساعدنا على قياس الأشواط التي قطعت ، ومعرفة الأخطاء التي وقعت وتقدير طبيعة المراحل التي بقيت .

محمد الميلي

تونس 2001/1/15

كشاف حضاري وفهارس

1- فهرس الآيات القرآنية

2- فهرس الأعلام

-ز-

-ل-

-م-

-ن-

3- فهرس البلدان والأماكن

-هـ-

-و-

-ع-

-غ-

-ف-

-ق-

4- فهرس الأبيات الشعرية

المحتويات

صدر ضمن سلسلة ارتياد الآفاق

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق / المحرر
تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار 1182-1185	محمد بن جبير الأندلسي	علي أحمد كنعان
الذهب والعاصفة . . رحلة الياس الموصلي إلى أميركا ، أول رحلة شرقية إلى «العالم الجديد» 1668-1683	إلياس الموصلي	نوري الجرّاح
رحلتان إلى سوريا 1908-1920	الشيخ محمد رشيد رضا «صاحب المنار»	زهير أحمد ظاظا
رحلة الحبشة . . من الأستانة إلى أديس أبابا 1896	صادق باشا المؤيد العظم	نوري الجرّاح
الديوان النفيس في إيوان باريس أو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»	رفاعة رافع الطهطاوي	علي أحمد كنعان
رحلة إلى أعالي النيل الأبيض 1839-1840	البكباشي سليم قبطان	نوري الجرّاح
رحلة إلى أوروبا 1912	جرجي زيدان	قاسم وهب
الرحلة الشامية 1910	الأمير محمد علي باشا	علي أحمد كنعان
الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف 1929	شكيب ارسلان	أيمن حجازي
رحلة باريس 1867	فرنسيس فتح الله المرّاش	قاسم وهب
الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية 1902	الحسن بن محمد الغسّال	د . عبدالرحيم موذن
رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691	محمد الغسّاني الأندلسي	نوري الجرّاح
خطرة الطيف . . رحلات في المغرب والأندلس 1347-1362	لسان الدين بن الخطيب	د . أحمد مختار العبادي
رحلة ابن خلدون 1352-1401	محمد بن تاويت الطنجي	نوري الجرّاح
رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة 921	أحمد بن فضلان	شاكر لعيبي

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق / المحرر
رحلة الغرناطي .. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ورحلة إلى أوروبة وآسيا	أبو حامد محمد الغرناطي	قاسم وهب
رحلة إلى الهند 1899-1900	مار أثناسيوس أغناطيوس نوري	نوري الجرّاح
رحلة أفوقاي الأندلسي .. مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611-1613	أحمد بن قاسم الحجري «أفوقاي»	د . محمد رزوق
رحلة المقدسي .. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم 985-990	محمد بن أحمد المقدسي	شاكر لعيبي
سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير 1913-1914	الأمير يوسف كمال	جمال ملحم
النزهة الشهية في الرحلة السليمية 1855	سليم بسترس	قاسم وهب
رحلة الشتاء والصيف 1629	الشيخ محمد عبدالله الحسيني	سامر الشنواني
الرحلة الأوروبية 1919	محمد بن الحسن البحري الثعالبي	د . سعيد الفاضلي
رحلة المكناسي .. إحراز المعلم والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر الحبيب 1785	محمد بن عبدالوهاب المكناسي	محمد بوكبوط
الواسطة في معرفة أحوال مالطة .. كشف المخبأ عن فنون أوروبا 1834-1857	احمد فارس الشدياق	قاسم وهب
الرحلة الأمريكية	الأمير محمد علي باشا	علي أحمد كنعان
الرحلة اليابانية	الأمير محمد علي باشا	علي أحمد كنعان
رحلة شيخ الأزهر إلى أوروبة .. مذكرات مسافر 1909-1914	الشيخ مصطفى عبدالرازق	أشرف أبو اليزيد
خمس رحلات إلى الجزائر 1904-1932	محمد الخضر حسين وآخرون	د . محمد صالح الجابري
رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال 1743-1748	ابن حمادوش	د . أبو القاسم سعد الله
رحلة محمد الكبير .. باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري	احمد التلمساني	محمد عبدالكريم

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق / المحرر
بيروت - برلين - بيروت . . مشاهدات في أوروبا وألمانيا اثناء الحرب العالمية الثانية	كامل مروة	كريم مروة
رحلة إلى صحراء ليبيا	محمد حسين باشا	
اسبوع في بارس 1922	محمد بن عبدالسلام السائح	د . سليمان القرشي
البرنس في باريس - رحلة إلى فرنسا وسويسرا 1913	محمد المقداد الورتتاني	د . سعيد الفاضلي
سياحتي في بلاد التيبت الغربية وكشمير 1915	الأمير يوسف كمال	جمال ملحم

هذه الرحلة

ارتياد الآفاق

يتضمّنُ هذا الكتابُ خمسَ رحلاتٍ إلى الجزائرِ قامَ بها أربعةُ أدباء وعلماء تونسيّين وشاعرٌ جزائريٌّ، ما بين 1904 - 1932، وهي يوميّاتٌ تصوّرُ لنا بعضَ مدُنِ الجزائرِ خلالَ الحقبةِ الاستعماريّة الفرنسيّةِ؛ وتتضمّنُ انطباعاتِ هؤلاءِ الرحّالةِ في فترةٍ بدا فيها كلُّ شيءٍ مستكيناً ومستسلماً لإرادةِ الاستعمارِ. لكنّ هذا ما كانت تقولُه القشرةُ فقط على سطحِ الحياةِ الجزائريّة.

هذه النصوصُ كُتبت وتوجّهت، أساساً، إلى القارئِ التونسيّ، عبر صحافته، للإطلاعه على أوضاعِ المدُنِ الجزائريّةِ المحتلّةِ وأحوالِ الناسِ فيها.

إنّ الدوافعَ التي حملت الرحّالةَ على زيارةِ الجزائرِ تكادُ تكون واحدةً، فضلاً عن أنّها تغطّي منطقةً جغرافيّةً واحدةً هي تلك الواقعةُ شرقَ الجزائرِ وجنوبَها، وفي قليلٍ من الحالاتِ تجاوزَ أصحابُها إلى وصفِ العاصمةِ؛ وهي رحلاتٌ يكمّلُ بعضُها بعضاً من حيثُ التغطيةُ الزمنيّةُ، لكونها أنجزت في سنواتٍ متلاحقةٍ، ويمكنُ من خلالِها ترتيبُ أجزاءِ الصورةِ الواحدةِ التي تبعثرت إلى أشلاء خلال حقبةٍ هي الأقسى في حياةِ الجزائريّين.

ISBN 9953-36-615-2

المؤسسة العربية للدراسات والنشر





دار السويدي للنشر والتوزيع